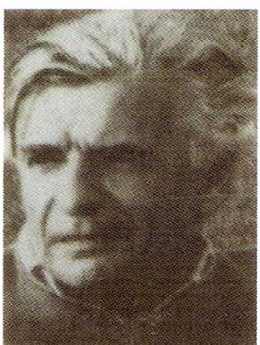
إيف بونفوا

الصّوتُ والحجرُ

أنطولوجيا

انتخبها وترجمها وحاور صاحبها

محمّد بن صالح



آفاق للنشر والتوزيع

منشورات الجمل

شعر

إيف بونفوا: الصّوتُ والحجرُ

إيف بونفوا

الصّوتُ والحجرُ

أنطولوجيا

انتخبها وترجمها وحاور صاحبها
محمّد بن صالح

CFCC

Liberté • Égalité • Fraternité
RÉPUBLIQUE FRANÇAISE
AMBASSADE DE FRANCE
EN RÉPUBLIQUE ARABE
D'ÉGYPTE

منشورات الجمل

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

محمّد بن صالح شاعر تونسي، من مواليد ١٧/٠٣/١٩٤٦ ببلدة زرمدين. مجاز في الفلسفة من جامعة دمشق. يدرّس الفلسفة بالمعاهد الثانويّة. له العديد من المؤلّفات والترجمات منها: **الشّعراء على اليمين وعلى اليسار الشّعراء** (مقاربة ١٩٩٢)، **أنت كالزّهرة لا تبصرين** (شعر ـ ١٩٩٣)، **البحر والصّفصاف** (مسرحية ـ ١٩٩٦)، **الهوى قرطاج** (ملحمة ـ ١٩٩٩)، **ديوان نيتشه** (ترجمة ـ ٢٠٠٣).

إيف بونفوا: الصّوتُ والحجرُ، أنطولوجيا

انتخبها وترجمها وحاور صاحبها: محمّد بن صالح

(العنوان من وضع الناشر والمترجم) الطبعة الأولى ٢٠٠٧

75 شارع القصر العيني ـ أمام دار الحكمة ـ القاهرة ـ مصر، تليفاكس: 002027953811

Email: afaqbooks@yahoo.com

Yves Bonnefoy: La voix et la pierre

Choix de poèmes, traduction, préface et entretien avec l'auteur

Par Mohamed ben Salah

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع

المركز الفرنسي للثقافة والتعاون العلمي قسم الترجمة والنشر بالقاهرة

تقديم وحوار

لعلّ من أهمّ ما يشرّع الاهتمام بالإبداع، اليوم أكثر ممّا مضى، وبالشّعر أساسا، وبالأحرى بنسبة منه دون غيرها، هو الحال المرعب لوقتنا الرّاهن، هذا المشتبه فيه بكلّ المعاني.

ويتنزّل الانتباه إلى إيف بونفوا، وبالتّالي الاهتمام بإبداعه، والصّورة عن ذلك هذه التّرجمة، بما هي في الجوهر حوار، ضمن إرادة التّواصل في تأمّل الشّعر معنى وقيمة ودورا.

درس إيف بونفوا /١٩٢٣/ الرّياضيات، ثمّ تركها إلى الفلسفة، دون أن ينقطع عن الانشغال بتاريخ العلوم. اقترب من السّرياليّين وسرعان ما ابتعد عنهم: كان يرفض استسلامهم لسيادة الشّكل على النصّ، ففي رؤياه أنّه على الكلمات أن تحافظ على دلالتها الأرضية التي بدونها لا وجود لعلاقة حقيقية بالعالم .لأنّ الوقت ـ أيّام ما بعد الحرب العالمية الثانية ـ ما عاد يحتمل الهروب إلى الخيال أو اللعب على الكلمات. ولقد نال ديوانه الأوّل في حركية دوف وفي ثباتها/ ودوف هي الأرض/ من الحضور حيّزا حين صدوره /١٩٥٣/ ما جعل النقّاد يعتمدونه/ مع جملة أعمال أخرى لبونج ـ F.Ponge، وبريفير ـ *J.Prévert*، وغولفيك ـ E.Guillevic، .../ إحدى البشائر

للإعلان عن ولادة واقعية جديدة يحاول أصحابها، كلّ على طريقته تجديد العلاقة بين الشّعر والعالم.

غير أنّه لا يمكننا الحديث بخصوص شعر بونفوا عن واقعية خالصة، يقول بعضهم، لأنّه «يحاول أن يتجاوز الظّواهر إلى إبداع الصّورة عنها، وأن يفكّك رموز العالم أو على الأقلّ هو يطمح إلى ذلك: الحقيقة والصّورة تندمجان دون تعارض في شعريّته. إنّه يوكل إلى الشّعر مهمّة إدراك الحقيقة بطريقة على تمام المغايرة لتلك التي تنتسب إلى الفلسفة والعلم. هذه الغاية المعرفية تفضي إلى رفض تعالي الصّورة... إنّه يكتب القصيدة كطريق وسط بين الحلم والواقع...».

هذه القدرة للشّعر على إدراك الحقيقة، حقيقة معرفة العالم، هي عنده، أفضل من التي للفلسفة لأنّ هذه إن هي إلاّ، في تعمّق الفهم، تعلّق بمقولات لغويّة تتسلّط على وعينا بالأشياء. وكذلك هي أفضل من التي للعلوم، فالرّياضيات، مثلا، تقترح أنظمة متناسقة غير أنّها ليست في تطابق مع العالم... إنّ عيب هذه البحوث، يقول، أنّها تقوم على مفاهيم، والحال هذه، فالمفاهيم ليست سوى رؤى جزئية مُتحصّل عليها باقتطاع بعض المظاهر من الموضوع على حساب الأخرى... وعلى عكس الفلسفة، فإنّه بإمكان الشّعر أن ينجح في تملّك حضور لأنه يقوم على الكلام، على المادّية التّصويتية للكلمات...

في قصيدته ضدّ أفلاطون، يقلب بونفوا أولوية المفهوم على المحسوس كما وطّدها التّقليد الغربي، الذي لا يرى في المظهر إلاّ انعكاسا، وهو ما يؤدّي، يقول، إلى إبطال كلّ محاولة للفلسفة لإدراك جوهر العالم.

إيف بونفوا هو شاعر القدم، يقول بعضهم، وهو في ذلك يقترب كثيرا من عالم ما قبل السّقراطيّين واعيا بالقيمة النّموذجية للميثولوجيا اليونانيّة في نزوعها نحو مطلق المصادر الأولى... يراهن على ضرورة الشّعر ومشروعيّته إلى حدّ رؤية مصير العالم من مصيره يقول: إنّ للشّعر دورا لا شيء يعوّضه، فإذا انقرض فعلا فإنّ المجموعة الإنسانية ستنهار معه.

السيّد إيف بونفوا

في تهيّب لتجربتك الطّويلة، وللصّورة عن الشّاعر يجهد منذ ما ينوف عن النّصف قرن في تعمّق موقعه ودوره، مقيما على قلق في تلك القولة التي تفتح على أبعد ما ينتهي إليه المدى: لقد آن للشّعراء أن يتقدّموا، أكتب إليك مسكونا بهذا القلق المصاحب لطبع الشّعراء، حيث كانوا ومتى، الذي له ألف من الأسباب كلّها قابلة للاختزال في واحدة: معاناة القصيدة، وبالتّالي معاناة العلاقة بينها وبين الرّاهن، وبالتّالي معاناة المسؤولية تجاه الأحداث، أو على الأقلّ، كما تقول، تجاه التّأويل الذي يمكن القيام به لتلك الأحداث، وما يشرطه ذلك من تعمّق الطّريقة التي يمكن للشّعر أن يتصدّى بها للكارثة.

عن الكارثة، أنّ أسبابها ألف كلّها قابلة للاختزال في واحدة: هيمنة المفهمة، سيّئة السّمعة بموجب كونها في الجوهر فعل اغتيال، اغتيال الحلم في ذات صاحبه، والحلم في سياق حديثنا، الآن وهنا، الصّورة عن التّوق إلى الانصهار في الأرض بما هي التجمّع، في تداخل، للعناصر الأولى، في فعل قطع مع أشكال مقاربته من مختلف

مسارب الحكماء والعلماء... دون الذّهاب في القطع إلى حدّ اعتماد التّكذيب والتخطئة والتّنفيذ، فهذه حركات لا تفعل، في أبهى لحظاتها، عدا أن تعود بصاحبها إلى الرّكون لمختلف صنوف البرهنة، والتّدليل، والحجاج... وهذه لا تحمي صاحبها من السّقوط في المفهمة، في افتعال المسافة بين الأرض والسّماء، بين الحسّي والفكري، والذّهاب في ذلك إلى حدّ ابتذال الحسّي، بل إلى حدّ إنكاره!..

وكم طربنا في بعض لحظات توتّرنا إلى الشّاعر نيتشه عندما أعلنها، دون إخفاء شماتته: إذا قام اليونانيّون بفعل يحمدون عليه، فهو حُكمهم على سقراط بالإعدام. من الوعي بمخاطر المفهمة، ومن إلحاحك على ضرورة القطع معها وفضح مساوئها على مستوى الذّات فردا وجماعة، وعلى مستوى العلاقة بين الذّات والعالم، تواصل الاهتمام بالصّورة عندك عن التّناهي، والامتلاء، والانخراط وخداع الكلمة...

وكان الحاصل، أنّ تجربتك تتآلف، في تمايز، مع الشّعر في زمنه البهي؛ زمن هوميروس، وهزيود وبندار وإسخيلوس... الذين أنشدوا الأرض أوّلا، وكانوا في بوحهم لها على أبهى الصّور في الانصهار بمواضيع الغناء. وكذلك الشّعر عندك، فهو انصهار في الأرض أوّلا، وهذه الأرض تقبل علينا إقامة على تقاطع عناصرها المعلومة، ولكن في تجدّد صورا وإيقاعا؛ النّار مدفأة وحرائق وبروق، والماء أنهر وضفاف وسواحل وجداول، والتّراب حجارة وصخور وحيطان، والهواء عواصف وصفير وحفيف أوراق...

وكان الحاصل، أنّ الإقرار بأولويّة الإبداع قول لا يعيّنه زمان دون غيره، بل هو الذي به يتعيّن الزّمن.

هذا الإقرار، الذي بات كأنّه البديهيّة، على أنّ الشّعر سابق عن النّثر /في غير التزام بما قصده هيغل من هذا الحكم/ ، وعلى أنّ الشّعر يمتنع عن أن يُحاصر باعتماد المقولات الأرسطوطاليسيّة. وعلى أنّ حاجة الرّاهن إليه أكثر إلحاحا من حاجته إلى العلم والفلسفة، قادني إلى محاورة عدد من الشّعراء من مختلف العصور والأمكنة.

عبر هذا الهاجس الأساس قصدت إلى أشعارك وما جاورها من تأمّلات ومقاربات وقراءات، وكلّها جهود لا تحضر إلاّ مصطحبة بعضها، لأنّها كلّها من ماهية الشّعر تقبل.

وكان قرار الحوار معك: انتخاب نسبة من النصوص وترجمتها.

السيّد إيف بونفوا

يتنزّل عملي هذا /الأنطولوجيا/ كمرحلة من الطّريق التي شرعتُ أقطعها من فترة ليست قصيرة محاورا عددا من الشّعراء، كنتُ أقول، وأضيف ألئك الذين أخذوا الطّريق العسير قطعها، لأنّها الأكثر بهاء، لأنّها الأكثر عدلا، لأنّها الأكثر جدارة بالإنسان ككائن حرّ واع بهشاشته، كما تقول؛ بإمكانية انهياره في كلّ لحظة، وهذه إضافة مني، إلى حدّ تحويل الحرّية إلى أداة هيمنة خلف قناع الإيديولوجيا السّياسية، والعلمية، والأخلاقية، والجمالية...

هذه الطّريق الأكثر وعورة من غيرها، أعيد، هي الأكثر جدارة

بالإنسان الحرّ، وأضيف لأنّها في صورتها الأولى: إبداع للمعنى الذي يرفض الولادة إلاّ صورة وإيقاعا، وإلاّ عندما الصّورة والإيقاع عن توتّر الجسد يصدران، فأبدا على ذات الحال لا يستقرّان.

على هذي الطّريق الوعرة أكثر من غيرها /حيث المسافة تطول وتقصر بين القمّة والهاوية/ أراك في أشعارك محطّة لا غنى عن التوقّف عندها مطوّلا، حتّى تكون الطّريق طريقا تشرّع للحلم بإدراك المدى، وعلى بقعة من هذي الطّريق شرعت أحاورك؛ أترجم قصائدك في الدّلالة التي تجاوز وظيفة ساعي البريد أو الرّسول؛ إلى الجهد في إتقان ما يشرطه الحوار. ومغرقا في الحلم بالصّعب غير المستحيل، أعني الانخراط في ما يحرّر الصّورة من مكبّلات المفهمة وذلك بأن آتي إلى لغتي بالصّور من عندك، من خلف حدّ الماء، وأن أقترح عليها احتضانها وفق طبعها في التلقّي، لتزداد مراتب الخضرة في النّخيل درجة، وكذلك في الزّيتون، وكذلك في المراعي، وأن أتى إلى لغتك بالصّور من عندي، من خلف حدّ الماء، وأن أقترح عليها احتضانها وفق طبعها في التلقّي، فتزداد مراتب الأصفر في الحجارة درجة، إذ يضاف إلى أحوالها واحدة أخرى: الأرض يوم يغلبها الظّمأ... فليس الكونيّ ذاتا فقدت تقاطيع وجهها، وإنّما هو الذّات حين التّقاطيع على وجهها تشهد أنّها أبدا ما انقطعت عن السّفر، وعن معاناة ما يلاقيه المسافر ممّا تخبّئه الطّريق لكلّ مسافر، وخاصّة للذين من بينهم جعلوا الطّريق إقامة في حركة.

أبدا ما مات دوموزي، ووُلد تمّوز، ولا مات هذا ووُلد إيزيريس،

ولا مات هذا ووُلد أدونيس، ولا مات هذا ووُلد الفينيق... لكنّه المسافر يقطع الطّريق من أوروك إلى قرطاج.

أبدا ما مات بندور ووُلد زيّوس، ولا مات هذا ووُلد أخيل، ولا مات هذا ووُلد إيّاس، لكنّه المسافر يقطع الطّريق من أثينا إلى روما.

هذا ما استطعتُ فهمه من الحوار بما هو القدر: قدر الكلمة أن تعدّد من دلالاتها، وأن تكون في ذلك لا نهائية الجهد والمسعى، حتّى لا تكلّسها المفهمة في أحادية المعنى؛ حتّى لا يذبل فعل التحرّر، حتّى لا يكون الخراب الذي لا فعل يسبّبه كما المفهمة.

عن المفهمة أنّها الصّورة عن الذّات إذ تنهض معدمة باقي الصّور لتظلّ وحدها الصّورة؛ يرمي بها صاحبها فوق الجبل، ثمّ يرمي بها إلى النّاس على أنّها الصّورة الأبهى، مشرّعة لذاتها أن تنوب عن باقي الصّور، وبالتّالي أن تعدمها، إلاّ التي رضيت بموقع الظلّ لها، أن تكون لها الصّدى. ولقد كان لها ما أرادت...

عن العولمة أنّها الذّات إذ تنهض مسكونة بإرادة إعدام باقي الذّوات، فلا يصيبها الارتباك بموجب أيّة قيمة، ولا تأخذ من مكتسبات الذّوات إلاّ ما يشرّع غزو الذّوات، قصد إعدامها لتظلّ هي الذّات... وهاهم قد شرعوا بعد في اكتساح الأرض حرقا...

عن الخراب أنّه المفهمة تكاد تبلغ قصدها، ولعلّها قد أدركت بعد غايتها.

عن الخراب أنّه المفهمة تصير عولمة.

مُغرقا في الحلم بالصّعب غير المستحيل؛ في ما يحرّر الصّورة من

مكبّلات المفهمة، شرعت في الحوار معك، ولقد استغرق الحوار ما يجاوز الثّمانين نصّا خمّنت أنّها تكفي لإعطاء الصّورة، ولو إلى حدّ، عن الطّريق التي قطعتَها في رحلة الإبداع منذ أربعينات القرن الماضي حتّى أيّامنا هذه.

وكان محصول الحوار، هذه النّصوص وقد خرجت من بيئتها دون أن تفقد، كما أرجو، شيئا من هويّتها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى،

كان محصول الحوار أيضا: أنّ هذه الصّورة، عن الطّريق التي قطعتها في رحلة الإبداع، تظلّ في حاجة إلى تمهيد يتناول العناصر الرّئيسة التي تشكّلها، وليس أقدر على ذلك من صاحب الصّورة نفسه.

لذلك أقترح عليك أن نجري حوارا موجزا نتناول فيه بالحديث بعضا من أهمّ خصائص رحلتك الإبداعية، راجيا ألاّ أكون أثقلت عليك بهذا الطّلب، لعلمي أنّ ما سأسألك فيه، مرارا كنتَ أجبتَ عنه المتسائلين... لكنّها على دوام التجدّد تبقى، فما دامت إرادة الحياة عندنا أن يكون العالم من ماهية الإبداع، فالكلمة، لذلك، لا تكون إلاّ على دوام الولادة... لأنّ فعل الحرّية: كتب.

م.ب.ص

ستّون عاما من كتابة الشّعر إبداعا وتأمّلا في قدرة الكلمة وحدودها، فأن نكتب الشّعر، قلت، هو أن نفكّر فيه أيضا.

مسار طويل لا يضمن المتناول له بالقراءة عدم تشويهه، خاصّة إذا تعلّق الأمر بشاعر في عنفوان إبداعه.

هل بإمكانك إعادة رسم مسيرتك الشّعرية؟

إ.ب

ليتني أقدر على المحاولة، لكنني لا أملك إلاّ القليل من الكلمات لهذا، وهو ما يسمح لي بتبسيطات ما كنتُ لأنقاد لها لو كنت أتصرّف في فضاء أكبر ووقت أطول. مسيرتي الشّعرية؟ فلنقل إنّها كانت دوما مزدوجة. كتابة الشّعر وأيضا تأمّله، فهم ما يكونه، وأين يتميّز عن الخطاب العادي، وأيضا عن الأدب، والتّفكير في إمكاناته وأيضا في ما يمكن أن يعوق مسيرته في لحظتنا التّاريخيّة.

لـمَ هذه الازدواجية في النّظرة؟ لأنّ ما يهيمن على مجتمعنا الغربي، هو الفكر المفهمي الذي تتمثّل طريقته في إبراز الظّواهر، الظّواهر البسيطة، وتعيينها، في المواضيع التي تتفحّصها. عندئذ يدرك علاقات بين مختلف هذه المظاهر لمختلف الأشياء، يدرك شبكة بأكملها من العلاقات تصبح تدريجيا عالما ذهنيا قابلا لأن يبدو كأنّه الواقع ذاته، لكنّه ليس إلاّ صورة عنه. إنّ ما وقع تجاهله أساسا في الأشياء والكائنات، هو أنّ لها خصوصية؛ تَوافُقها مع لحظة وجودها ومكانها، ما يمكن أن نسمّيه تناهيها. والحال هذه، فإنّه في فضاء هذا الأخير توجد رغائبنا وانفعالاتنا. والشّعر هو إرادة استعادة العلاقة مع هذا التّناهي المنسي، ولكنّه أيضا ما لا يريد عصرنا أن يعرفه.

بتعبير آخر، الشّعر غائب من حقل الفكر المهيمن. بل إنّي ألاحظ، في حالات عديدة، أنّه مخنوق بتعمّد، ومطرود، وبطرائق فعّالة بقدر ما هي بارعة. هكذا صاروا لا يقصدون بالشّعر ما يكون انشغالا بعمق الواقع الذي كنت أذكره، ولكن، على سبيل المثال، يقصدون به تجريبا بسيطا على مفردات اللغة، وهو ما سيوهم بأنّنا مازلنا نتكلّم عنه: هنا يمثل الفخّ الذي غالبا ما يسقط فيه الكتّاب الشبّان.

وهذا ما يفسّر ما رأيته واجبا عليّ القيام به في حياتي. الشّعر في خطر، ومن الضّروري أن نتجنّب هذه المخاطر، أن نبطل هذه المناورات، وهل أفضل في القيام بذلك من تفحّصها واحدة واحدة، في تيقّظ نظري يجب أن يصبح فلسفة، حتّى نفهم آليات الكلمة، وفي تأمّل تاريخي، إذ أنّ قضايا الرّاهن توضّحها قضايا الأمس؟

إنّ بقاء الشّعر يتطلّب هذه الأنواع من الدّراسات، التي لن تكون، صدّقني، تعبيرا عن ذائقة خاصّة لعمل في المكتبة، على حساب عفوية الحياة، بل تكون، على العكس، استتباعا للشّعور بأهمّية الحياة وبرغبة حمايتها. ذاك هو السّالب المتوجّب إنجازه حتّى يمكن لهذا الموجب أن يزهر من جديد، فلاحة الأحشاء التي منها سيقدر القمح على أن يولد من جديد.

ما الذي اعتقدته واجبا عليّ القيام به في كلّ حال؟

ألاّ أعير الكثير من الانتباه إلى البيانات، التي لا تفعل سوى أنّها تثير مسائل ثانوية، على سطح القرن، بل، أن أعي قيمة مدرسة الدّراسات العليا، ومعهد فرنسا، وهما فضاءان تشقّ المعرفة فيهما طريقا دون توقّف تسبّبه الأحكام المسبّقة الآنية، وأن آخذ عن كبار

الباحثين الذين كانوا يعلّمون بها آنذاك إتقان فهم الدّيانات، والميثولوجيات، والأفكار، والفلسفات، والإبداعات الفنيّة، كما وُجدت عبر العالم. وكان اعتقادي أنّ كسبا كبيرا يحصل، من وجهة نظر الشّعر، من قراءة مرسيل موس / M.Mauss/ ، أو جان فال / J.Wahl/ ، أو فرانز كيمون / F.Cumont/ ، أو جان بيار فرنان / J.P.Vernant/ . وأنا ذاتي شرعت في أعمال تأمّلية تاريخية عن الرّسم الإيطالي، عن الباروك، عن شكسبير، لكن دائما مع مشروع إيجاد الطّريقة التي يعي بها الشّعر ذاته في عصور كبرى مختلفة.

ومن ثمّة جاءت كتبي العديدة كطباقية / Contre-point/ ، لمؤلّفاتي الشّعرية، لكنّني لست لهذا أستاذا يكتب القصائد، صدّقني. أنا شاهد على الشّعر اقترب من فضاءات البحث العلمي لأنّ هذا يسمح لنا بإتقان إدراك رهانات الشّعر الخالد. وأنا لا أشعر بفارق من حيث الطّبيعة في عملي بين التأمّل النّقدي والقصيدة.

م.ب.ص.

«إيف بونفوا هو شاعر الحضور. وكلّ أعماله احتفال به...».

إنّه حكم موضوع اتّفاق أكثر منه رأي شخصي. ما الحضور عندك؟

إ.ب

نعم، هذا السّؤال طبيعيّ جدّا، تماما، إذ أنّ مشروعا في التأمّل والوجود كهذا الذي كنت أذكر يفتح ضرورة على فكرة عن الشّعر، عن طبيعته، عن إمكانياته، عن دوره، وعليّ أن أقول لك، وهذا لن

يذهلك، إنّ هذا التصوّر، هذه الفكرة عن «الحضور»، إذا وجب التمسّك بهذه الكلمة بصورة خاصّة، لم تنشأ دفعة واحدة ولم تنشأ فجأة. مثلا، كان عليّ أن أتخلّص من بعض السّرابات التي كانت تمثل في أفقي عندما خرجت من المراهقة. في تلك الآونة التقيت بالسّريالية، التي كانت تقترح «فوق ـ واقع»، ولقد كان هذا المفهوم قطعا سيّء التّأسيس ووهميّا، لكنّه كان مغريا. ومن ناحية أخرى كان على شيء من الحقّ، في لا واقعيته: إذ أنّه كان يشير إلى أنّ ما يشهد به الشّعر، ما يعيّنه، ما يطلب الالتقاء به، هو شيء ما لا يسمح بأن يُختزل في الطّريق العادية لممارسة أشياء الوجود. إنّ «الفوق ـ واقع» السّريالي، كان إلى حدّ ما تجربة «حضور».

ما الحضور عندي؟ بهذه الكلمة التي استعملتها بالفعل كثيرا، وكثيرا ما حاولت تحديدها، وهو، مع ذلك، ما لم يكن كافيا لتبديد كلّ الالتباسات، إذ يوجد قرّاء، وهم كثرٌ، متعجّلون وشاردو الأذهان، يُسقطون، بسبب نفاذ صبرهم، على ما يقوله الكاتب ما يتوهّمون معرفته ويتخيّلون أنّه يقوله؟

أعني بكلمة «حضور» العلاقة التي تتأسّس في داخلنا مع أشياء أو أناس عندما نكون نجحنا في تخليص فكرنا ممّا هو تمثّلات أنشأناها عنهم بوسائط الفكر المفهمي، هذا الفكر كان يحلّ محلّهم شيمات / Schèmes/ ، ذكرتُ ذلك منذ حين، فيضيع عنه تناهيهم الجوهري. وإذا نحن منه تحرّرنا، فإنّ موضوعنا يصبح، بطريقة ما، لا مرئيّا، بما أنّنا سنعدم الوسائط المفهومية الضّرورية لتأويلها، لوضعها في صياغة، لكنّه لن يكون منفصلا عنّا، سنكون معا في الوحدة المدركة فجأة من

الواقع. إنّ الحضور هو تناهي الآخر المدرك تماما، في لحظة حيث من هذه الحركة ذاتها، من جانب آخر، ندرك أيضا تناهينا، وها نحن الإثنان في العالم لا شيء، لا شيء لكنّه الكلّ.

لذلك فتجربة الحضور متعذّر بلوغها كاملة. إنّها متعالية عن الوسائط التي نملكها للتّفكير فيها، أو لعرضها، كثير من الفكر المفهومي المترسّب يوجد فينا على الدّوام عند التحوّل من التمثّل إلى الحضور في علاقتنا بالموضوع. إنّ الخيال، مثلا، المتحرّك بالرّغبة العادية، يعوّض بأحلام اليقظة التي يُسقطها عليها ما يجب أن يكون عليه من انفتاح كامل للكائنات التي نحبّها. هذا ما أعنيه عندما أقول إنّ القصيد أقلّ من الشّعر.

م.ب.ص

الشّعر والمسرح، والرّسم، والموسيقى... ماذا عن انشغالك العميق بهذه الفنون، وخاصّة الرّسم؟ هل في الأمر شعور بالعزلة داخل القصيدة، فإرادة خروج إلى الفضاء الأرحب، فضاء الإبداع عامّة؟ أم أنّ الأمر يعني موقفا من التّقليد الذي يفصل في «تعسّف» بين ما لا يفصل؟ أم أنّ في الأمر بعدا آخر؟

إ.ب

فعلاً، لقد انشغلت كثيرا بالرّسم، وهذا لسبب بسيط. إنّ ما أدعوه شعرا، هو، كما قلت لك، الحاجة إلى أن نعيد إلى الحقائق وجودها الكامل، الآن وهنا، الحاجة إلى أن نعيد إليها ما هو متعدّد وحتّى، حرفيا،

ما هو لا متناه، وجودها المحسوس، وهذه الحاجة، هذه الرّغبة، بإمكان الرسّامين الشّعور بها كما الشّعراء، وإذن فهم أيضا شعراء، وقادرون على الإتيان بالكثير من العون للذين ليس لهم إلاّ الكلمات لقول ما يوجد. إنّ الرسّام يساعد الشّاعر على رؤية الواقع المباشر، الذي يخفيه عنّا الفكر المفهومي. إنّ «انفعالات، شمس مشرقة»، لكلود موني / C.Monet/ : هذه اللوحة تضعنا أمام لون السّماء الأحمر كما أمام شيء مباشر، بما هو أبعد من كلّ التّحاليل التي يمكن للفكر أن يقوم بها.

لكنّ لنتحدّث، بالأحرى، عن المسرح. يمكن للمسرح أن يكون فضاء الإبداع الشّعري بامتياز، بما أنّ هذا الأخير يحاول الاهتداء إلى الآخرين في أقرب ما يكونه الآخرون بالنّسبة إلى ذواتهم، بأبعد من القراءات الاختزالية التي ننجزها في العادة بخصوصهم: بحيث أنّه بطبعه علاقة بالآخر، تبادل، وهذا على المستوى الأكثر راديكالية.

في ما يخصّني، على كلّ حال، كنت دائم الشّعور بأنّ القصائد التي أكتبها تأتي كأنّها محمّلة باستجوابات أقوم بها للآخرين، بل غالبا ما أشعر بها مجتاحة بأجوبتهم. لقد عنونت الكثير من قصائدي بـ: «صوت»، «صوت آخر»، لأنّني كنت أرى أنّ نصوصي تفتح على أكثر من حضور عدا حضوري. إنّي على قناعة أنّه توجد في ذات كلّ منّا كلّ الرّغبات الإنسانية مجتمعة، وكلّ الرّؤى الإنسانية للحياة، وإنّنا إذا تعمّقنا كفاية كتاباتنا، فسنرى أنّ العلاقات الإنسانية تنتشر في كلّ الاتّجاهات الممكنة.

ومع ذلك فإنّ المسرح في مجتمعنا الغربي أبدا ما كان إنجاز شعراء، وفي المرّات التي كان فيها كذلك، ما كان بالطّريقة المؤثّرة

التي أطرحها. والسّبب، أنّه في المجتمع الحديث، التّجاري، يتقدّم المسرح على خشبة، أمام جمهور جالس في القاعة، وإذن هو عرض، نشاهده، من الخارج، والمفترض أنّه كلمة يأخذها كلّ واحد منّا على عاتقه، يحياها من جديد، مرورا بالطّرقات التي يقترحها المؤلّف. ونتيجة لذلك لن تكون هناك خشبة مسرح، بل في ذهننا وفي كلّ مكان من وجودنا تتواصل هذه الحركة.

طرقات تبدأ منّا، عن بعضها تتميّز، عبرنا تكلّم بعضها. إلى شيء من هذا النّوع كنت أطمح دائما، وقد توصّلتُ إلى ذلك مؤخّرا، في كتاب هو في طور الإعداد نشرت منه مقاطع في مجلّة «أوروبا ـ Europe» عام ٢٠٠٣ تحت عنوان «الفوضى».

م.ب.ص

إنّ العلاقة بالآخر، تقول، هي الجوهر في الإبداع الشّعري.

تحيلنا العلاقة بالآخر، اليوم وأكثر من أيّ وقت مضى، إلى الإيديولوجيا بسبب «وضع يدها» على كلّ شيء، العلم والأخلاق أساسا، وبسبب قبول طبقة من المبدعين بذلك أو بسبب شرودهم.

كيف تنظر إلى العلاقة بين الشّعر والمجتمع؟

إ.ب

إنّ ما يُعاني منه المجتمع الإنساني، هو القراءة الاختزالية التي يقوم بها كلّ واحد منّا للكائنات الأخرى، بسبب أداتنا المفهومية، كما كنت أذكر ذلك منذ حين. هذا الاختزال مخرّب، إذ أنّه يمنعنا أن نقاسم

الآخر تجاربنا الأكثر حميمية، إنّه يحرمه من الكرامة التي يجب أن تكون له في نظرنا، وهو يدرك أوج إساءته عندما تستولي الإيديولوجيا ـ كلّ من المفاهيم الاستبدادية ـ على مجموعة اجتماعية. والوسيلة الحقيقية الوحيدة للصّراع ضدّها، هي الشّعر ذاته، بما أنّه من حيث نزعته خرق للمفهومي.

أقرن إذن وبالطريقة الأكثر راديكالية بين الشّعر والانشغال بالمجتمع. هذا الانشغال لا يتجلّى بوضوح في القصائد العظمى، لأنّ هذه، بما هي بالذّات قصائد عظمى تنهمك في جدال المفهومي الذي كنت أتحدّث عنه، خرق تحاول إنجازه على الصّعيد الأكثر شمولا، وأبعد من كلّ المشاكل الخاصّة بالفكر والمجتمع. وإذا تعمّقنا الأمر رأينا هذه القصائد العظمى تنجز هذا الخرق لكي تعيد فتح العلاقة بالآخر من جديد، وبناء على ذلك: لكي تجدّد المجتمع.

لا توجد، في فرنسا على كلّ حال قصائد عظمى سياسية، لكنّ رامبو /Rambaud/، وحتّى بودلير /Baudelaire/، هما في شعرهما الأكثر صعوبة اقتراح لمجتمع، تجديد له بالقوّة.

الشّعر اجتماعي في جوهره. وفي ذلك يتميّز عن التصوّف، الذي له نفس غرض الشّعر الاجتماعي، أي حضور ما هو منشود وراء العبارات، لكنّه يدير وجهه عن الكلمات وبالتّالي عن التّواصل مع الأشخاص الآخرين. ولذلك يكون مفيدا جدّا، بالفعل، أن نفكّر أكثر في المهمّة الاجتماعية للشّاعر. هذه المهمّة مكانها في عمق النصّ، ولذلك فليس عليها أن تنشغل بما يُسمّى «مشاكل إجتماعية»، كالمطالبات مثلا، التي تتقدّم بها هذه الجماعة البشرية أو تلك، مهما

كانت هذه المطالبات مشروعة، لأنّ الحديث في ذلك إن هو إلاّ سقوط من جديد في مستوى هذا الخطاب المفهومي الذي يضارعه الشّعر: وإنّه في حياته لا في آثاره يعلن الشّاعر عن قناعاته.

لكنّه يمكن لهذا الشّاعر أن يفكّر بمهمّته الاجتماعية، مع ذلك، في كتاباته ذاتها. وذلك بألاّ يترك هذه الكتابة تقع في فخّ اللعب على الكلمات التي قد تحرم كلامه من تذكّر الواقع الذي يوجد خارجها، والتي قد تنتهي به إلى العزلة.

منذ عشرين عاما، منذ عشرة أيضا، ظننت أنّ كثيرا ممّا يسمّونه في فرنسا آنذاك «شعرا» يتحدّد بهذه التّجريبيّات على العلامات. واليوم أراني سعيدا لأنّ الأمر ما عاد بالضّبط كذلك. إنّ انشغالا بالعالم الخارجيّ يظهر من جديد. لكنّه ببساطة محتشم جدّا. إنّ شعرا حقيقيا لا يجب أن يسمح لنفسه بالانغلاق في مواقف من الحياة اليومية البسيطة، مهما كانت هذه الأخيرة زاخرة بالحقائق. بجرأة عليه أن يُجادل في توظيفات هذا اليومي، لتجديد الرّغبة. أن «نغيّر الحياة» قال رامبو. وفي عاديات الأيّام يتوجّب على هذا التغيّر أن يشرع في الوجود.

م.ب.ص

كيف تتلقّى، الآن، أشعارك إلى اللّغة العربية؟

إ.ب

في البداية، الأسف لعدم القدرة على متابعة المترجم في عمله. وددتُ لو كنت على الأقلّ على بعض معرفة بالعربية لأعاين الفارق ـ أو القرابة ـ الذي يوجد بين مفاهيمنا، والطّريقة التي يعمل بها الحدس الشّعري، الذي أراه كونيا، في لغتك. تمنّيت، بتعبير آخر، لو كان بإمكاني الحديث معك حول قراراتك كمترجم، حول اختياراتك، ولحظات الارتياح والإحباط.

لكنّ هذا الإحساس لا يساوي شيئا إلى جانب سعادتي برؤية لغتين حضاريّتين كبيرتين تتقاربان، لغتين وُجدتا في رأيي لكي تتفاهما برغم سوء التّفاهم المتعدّد الذي حدث عبر العصور. شعوري عميق أنّ العربية لغة مكان الشّعر فيها طبيعي، في حين أنّه في الفرنسية يجب أن نصارع باستمرار لنتذكّر ذلك.

... وكم غريبةٌ هي بعضُ الكلماتِ
بلا أفواهِ هي، بلا أصواتِ، بلا وجوهِ
نُلاقيها في العتمةِ، نُمسكُ بأيديها، نقودُها
لكنّ الليلَ يحطّ على الأرض مِن كلّ مكانِ
كما لو أنّ الكلماتِ كانت رَجُلا أصابهُ البرصُ
مِن بعيدِ نَسمع جلجلَه يدقُّ. رِداؤهَا
على جسم الأرض مَشدودٌ، لكنّهُ
يَسمح للضّياء أن يَتسرّبَ...

إيف بونفوا

القلب ـ الفضاء

١٩٤٥ ـ ١٩٦١

I

في برودة الصّيف وجهكِ من حَجرْ
أعلم أنّ أطفالا يحثّون الخطى
إلى نبع وحيد من الحصى والصّرخات.
هكذا عبرتُ وجهك وسط الأعشاب، لكنّ الضّياء أصبح أكمدَ،
رؤوسٌ هي الآن فوق بيارق الأرض، تزمجرُ،
البرق الباطنيّ يشجّكِ بالصّبا.

يا لحالِ الوقتِ على وجهكِ، رأيتُ عقبانا
تتنازع الشّتاء، بمخالبها تشيرُ إلى المسارحْ.
عِقابُ صِبًا، على الخضرة العجيبة ظلّكِ يُثقلُ،
قناعا أسود، تنسلّين بين الأعشاب المصقعة،
أيّتها العجلة الشّمسية، أيّها الوجه الصّيفيّ الرّاكدُ.

II

طفلا تسلّقتُ نوافذ عالية،
كنتُ الفضاء أجزّئه، ويداي
في أوتار الثّقالة كانتا
تشقّان لهما دربا من الصّخب الفظيع.

رأيتُ كلابا من الرّياح تمزّق صخر الشّواطئ،
والقماشةَ الكثيفة في ياقة قميصي تنطوي
(لكنّني عشتُ في هذا البيت النّفيذ)،
رأيتُ الرّيح تثقبُ روافدَ الصّبح، والأرضَ رأيتها
في أوهاد فراغها تتيه.
مقبرةٌ مِن القُرّاس كانت هناك، والدّلائلُ الخفيّة عن الرّيح
حولَ الأحجار كانت تتكوّم،
رأيتُ النّهار يفرقعُ، عشتُ هذي النّهارات،
نهاراتِ تمزُّقِ خطّ النّظرِ، ورثتُ الإعصار،
وملوكا قد استقبلتهم، رؤوسهُم
مكلّلة كانت بنيران من الخلنج، تلك التي
إلى التّلال تحملُ قلق الصّدفة.

III

أميالاً من الأرض السّوداء رأيتُ قطار مجانين يمحوها،
ورؤوسٌ تبلّرت قربي رأيتُ قطار موت يحزّزها،
وأطيارٌ هائلة تحطّ على الرّؤوس المشتهاة رأيتها
حين جئتُ إلى المسرح من حجر.

رأيتُ، وما الذي لم أره،
أنّكِ من طعم التّخوم والمدن المجازة فجرا
والتي، في أياديها الوحدة تنفجر، وهناك على الطّريق
في زيّه الأحمرِ، رأيتُ الموت يرتحلُ
في شعره الماءُ كأنّه دولابٌ، كأنّهُ
نبعٌ لرسم أطيار على الزّجاج رماديّ.

IV

...ما عدتُ أذكر أسماء هذي الأنجم المرهقة في السّماء.

عندي أنّ السّماوات قاطعة الرّؤوس من زمن قضت نحبها.

مرّات تحمل الرّيح إليّ وقع خطوٍ على الشّواطئ،

قدومٌ مُعتم لنار أخيرة.

- من خرابات الشّاطئ يطلع الصّقيع، وفي المرايا الوجوه مثلّجة تمدّها النّسوة

إلى أطراف سهام الرّيح العنيفة، والأرض فيها تشوّه تلك الوجوه.

V

... ما عدتُ أذكر أسماء هذي الصّداقاتِ المتوحّشة التي
كانت لنا في المدينة، وأراني أجلسُ ثانية
في صالون الغضب الشّديدِ، ونحن، مساء عائدين،
والرّأس منّا مرتع لشُعل الفضاء الخالدة.

طفلان من ضفّة مهجورة يقتربان.
الليلُ من فوقهما كأنّه القنديل.
في أيّ وهْد كان وجهاهما يسوءان
وفماهما يمتزجان، تحت فروع أنسابهما الثّقيلة؟

VI

... وحيدا بعد ذلك في الحديقة
كنتُ أصرخُ، قرونُ الموت قد خلبت وجهي،
مِن الكواكب الباهتة في وضح النّهار عليّ كان الغمّ ينهمرُ.
... على يقين كنتُ،
من أنّ في البستان من كان يمشي وأنّه في لحظة،
ستظهر على العتبة، هازّة رأسها المسخيّ، امرأة بائسة لا أعلمُ من تكون
وطفلُها بالرّيح مدفوعٌ كما الغسيل بالفضاء يَمتزجُ.

VII

ما عدتُ أذكرُ،
ومع ذلك فالبستان على قاع السّنين بعدُ ينفتحُ،
ما عادت الأسيجة للصّرخات متقنة.

صَمتُ البستان الرّهيب ما نسيتهُ.

كتابُ العازف

١٩٤٦

١

عازفُ بيانو يتهيّأ لعزف السّمفونية رقم ٣ على قيثارة العذارى الميّتات.

٢

في اللحظة هذه، يدُ العازف اليمنى المتعلّقة بالجدار فجأة تنفجر فتنتقل الحريق إلى رأس العازف المستقيم عبر شبكة من أنابيب الكاوتشوك الممتدّ على طول الجدار.

٣

العازف يفكّ رأسه المستقيم.

٤

عجوزٌ تحمل مطرقة على الباب تظهر. «ما عدتُ مهموما بهذا الصّفاء» يقول العازف. ويعيد تسمير رأسه المنطفئ.

٥

العازف يعزف السّمفونية رقم٣، ألمٌ مبرّح في إفريقيا.

١

يُقرّظون العازف. رؤوسُ الحضور تنفكّ، تتدحرج عند قدمَي العازف الذي يرمي إلى النّار بها. في ركن من القاعة بعض تصفيقٍ.

٢

يقتربون من العازف. رَجلٌ مسنّ يمدّ له اليدَ.

٣

يتراكمون حول العازف. يكاد العازف يختنقُ. يصرخُ: «ما أنا بقادر على خلاصكم».

٤

العازف يلمخْ، خلف عشّاقه، عجوزا تحملُ مطرقة.

٥

بدنّة من البيانو، يهشّم العازف مرايا الحضور. هذا الرّمزُ على غاية الوضوحِ.

١

العازف، وهو أبٌ لعديد الأطفال، يقتطع من الحركات الفظّة للجمهور أراض فلاحية باذخة.

٢

يُشعل رأسهُ (هذا الهاجس بالنّار يصاحب العازف باستمرار.)

٣

يخرجُ. رأسُه المشتعل يُضيءُ الأراضي البورَ وعلى حظيرة مسيّجة هذه الخربشات: أفكّر، إذن أنا موجودٌ.

٤

يَهوي. عجائز متسلّحات بالمطارق طالما أنبأهنّ تعرّجُ المرآة، يُسرِعْن الخطى. يحملنه. العازف بين أيدي غريماته.

٥

العازف يتفكّكُ، سجين هو في ذروة برج.

١

فظيع كما عازفٌ. جميلٌ كما عازف. ما عمرُ هذا الرّجل اللاّمتحرّك؟

٢

العازف محتجَزٌ في غرفة طولُها خمسة أمتار، وعرضها متران، وارتفاعها ثلاثة. على العتبة عجوز واقفة تحمل مطرقة.

٣

العازف يفكّرُ: يكفي أن نحفر تحت هذا الرّسم (العائلي).

٤

لكنّ العجوز تنهار. تكشف على سلّم.
على لافتة: «بوارق نارٍ قصيّة تهديني».

٥

يفرّ العازف في العتمة، مُدبَّقٌ رأسُهُ تحت ذراعهِ.

١

العازفُ يحمل حصانا ميّتا، قالوا. فهل قصدوا بذلك هذا الرّأس الثّقيلَ، هذا الرّأس القبيح؟

٢

«أوّلُ حجارة التقطُها»، يقول العازفُ. يضحك، لكنّه إلى ذاته ينظر في الواجهات.

٣

هل يَفتح بابا؟ كنتُ بعدُ قد قلتُ: عجائزُ حبيساتُ أبوابٍ، مطارقُ.

٤

«أوّلُ وجه فلقتُه»، يقول العازفُ...

٥

وجهٌ يبينُ، وجه شنيعٌ، مشنقة تطلب الدّم، مجلَى كثيفٌ منه تنبجسُ أيّها العازفُ.

١

العازفُ، ومساحة من الأرض القاحلة، وتربة صلبة بالقرب من حفّارات شرسة ينهمك أصحابه المجدبون.

٢

رَجلٌ يقتربُ: «من أين تُقبل؟ هل هذه الأرض لك؟...

٣

لكنّ العازف يلتقط سلاحا صدئا، مطرقة. «عندئذ وثبت ذاكرتي!»

٤

يَقتلُ الرّجلَ في كبرياء. يمحق هذا الوجهَ، يفكّكُ هذا الجسمَ.

٥

لعلّهُ ميّتٌ، لكنّ إثني عشر رجلا هم الآن يتنزّهون في أراضي العازف. وعبر أيّ انعطاف تعود الأنهر؟

١

بالأغصان الميّتة مُغطّى، العازفُ، بالأوراق الميّتة، بالرّيح مُضطربٌ...

٢

مُقتَلعا ينتظرُ العازفُ خلف الباب. حديثهنّ انتهى، العجائز، سيخرجن عمّا قريب.

٣

على الباب: وجهُ فلان... عازف بيانو. وإحداهنّ تقول: «في الشّرق الخالي...».

يُعيد الصّدى: «أحذيةٌ من جلد السمّور، أحذيةٌ من جلد السمّور».

٤

العازفُ، مُلطّخا بالدّم، ينادي التي تخرج أوّلاً، الشّاحبةَ، مُشعثةَ الشّعرِ:

«سيّدتي...»

٥

تهوي، المطرقة الثّقيلة على الغلاف الصّلبِ. مركبٌ يدخل ميناء تارينتي، فقدانُ ذاكرةٍ.

١

العازفُ ينهضُ، يرفع يده اليمنى، فيدَهُ اليسرَى، يُحني ذقنهُ. يطوّع حركاته لانفجار الإعصار.

٢

مائلا إلى النّافذة، بعينه العازف يزن المرأة الممدّدةَ. لكنّ أبعادها متنوِّعَةٌ مثلما البحرُ.

٣

«أنا حيّ» يكرّر العازف وهو يغوص في شارع مُظلم أسواره لا تنتهي. بين الحين والآخر فجأة يلتفتُ، ولكن لا أحد يتبعهُ.

٤

حينها، العازفُ، برقيّة تسلّم: «سأضيء محترقا في وحدتك، هذا المساء». لكنّ الشّارع مهجورٌ.

٥

أبدا لن تنتهي هذي الطّريق. منذ متى، عند جنب الطّريق، خلف زجاج نوافذهنّ العجائزُ يَرقبنهُ؟ في وحدتهِ العازفُ يسبحُ.

١

أخيرًا، غرفةُ الجريمة. العازفُ، من النّافذة، يرقب القوافل. كأنّها القطارُ.

٢

هي الآن هُنا، وبيدها المطرقةُ. على العازف شعرُها الرّماديّ ينسدلُ. وجهٌ مزعج في ملاك.

٣

إنّها هي! العازف ينتزع المطرقةَ. وفجأة دفقٌ من الدّم ينهمرُ.

٤

يا لهُ من خلاص! العازفُ، بعد التشنّج، بطيئا يعود مرئيّا.

٥

عازفٌ منشغلٌ. مدندنا السّمفونيّة رقم ٣ (المجهولة)، يمحي اخرَ آثار الاغتيالِ.

١

في قلب السّهب الأسطوري (الأمر يعني غشاء) تنتصبُ اللافتة الشّهيرة: «اقتلُوا عازفَ البيانُو».

٢

يطلقون النّار على العازفِ. يَصعبُ أن يُدرِك آخر السّهرةِ.

٣

وألاّ يحاول الانزواء في غرفة. مع ذلك يواصلون إطلاق النّار عليه: مِن الجدران، من بعيد. بسرعة كبيرة ينهارُ.

٤

ليست لهذا، فضلا عن ذلك، أيّة أهميّة. مِن بعيد جدّا، من بقعة الثّلج الحمراء العاكسة رأسَهُ الضّخمَ، يَلمحُ العازفُ المحتضرُ قافلة العجائز حاملات المطارقِ.

٥

اقتلُوا عازف البيانو! امحقوا هذا الكلب، هذه الجيفة! النّصرُ لهؤلاء العجائزِ! اطلقوا النّارَ على الرّجل الحيّ!

العازفُ، تماما ميّتا، خلفَ الأبواب يجوسُ.

ضدّ أفلاطون

١٩٤٧

I

الأمرُ يَعني بالضّبط هذا الشّيء: رأسُ حصان أكبر من حجمه العادي حيث مدينة بكاملها تتنزّلُ، حيث شوارعها ومتاريسها تتّبع تعرّج الخطم وامتداده. رجلٌ أتقن بناء هذي المدينة من خشب وكرتون، أتقن إضاءتها من مراوغة قمر حقيقي، الأمرُ يعني بالضّبط هذا الشّيء: رأسُ امرأة من الشّمع يدور مبعثر الشّعر فوق قرص اسطوانة الحاكي.

كلُّ أشياء الهُنا، موطن السّوخر، والفستان، والحجرُ، أي: موطن الماء على السّوخر والحجرِ، موطن الفساتين المنقّطةِ. هذا الضّحك المغطّى بالدّم، أقول لكم، أيّها المتاجرون بالأبدي، أيّتها الوجوه المتناظرةُ، أيّها الشّرود في النّظر، هو الذي في تصوّر الرّجل أكثر وطأة من الأفكار المطلقةِ، تلك التي لا تجاوز ترك أصباغها على فمهِ.

II

الآلةُ الرّهيبة فأس قرونُها الظلّ بالأحجار يرتطمُ،
آلة الامتقاع والصّراخ حين مجروحةً تدورين في فستان العيد،
فأسٌ لأنّه وجب على الوقت أن يتقادم في رقبتكِ،
يا للثّقلِ، ثقلِ موطن بكامله على يديكِ، والفأس يهوي.

III

أيَّ معنى نهِبُ: لرجل يشكّل من الشّمع والألوان هيأة خادعة لامرأةٍ، يبهرجها بكلّ التّماثلات، يحملها على أن تعيش، يعطيها بتقنيات ضوئية بارعة ذاك التردّد حتّى على ضفاف الحركة، تلك التي أيضا تعبّر عنها البسمةُ.

ثمّ بمشعل يتسلّحُ، يهجر كامل الجسد إلى نزوات الشّعلة، يشارك في التّشويه، في القطع مع الجسد، يلقي في ذات الوقت بألف شكلٍ ممكنٍ، بالمسوخ العديدة يأتلقُ، يُحسُّ كأنّه السكّينُ هذا الدّيالكتيكُ الجنائزيّ حيث نَصْبُ الدّم يُولد ثمّ ينقسمُ، في انفعال الشّمع والألوان؟

IV

تحت الفستان مَوطنُ الدّم يركضُ، في غير انفراج دائما يعدو

حين نقول، هنا يبدأ الجسد الليليُّ والطّرقات الضّالة بالرّمل تمتلئُ

وأنتِ في حذلقة تشعلين لأجل الضّياء قناديلَ عالية وسط الجموع

وتتقلّبين على عتبة موطن موت عديم المذاق.

V

حبيسُ غرفة، أسير الضّجيج، رجلٌ يقلّب أوراقا. على واحدة: «أيّتها الأبديّة أكرهكِ!» وعلى أخرى: «فلتخلّصني هذه اللحظة»!

وعلى ثالثة أيضا يكتب الرّجلُ: «موتٌ محتّم». هكذا، مضاءً بجرحه على تصدّع الوقت يمشي.

VI

على ثغر الأرض نحن من موطن واحدٍ،
أنتِ من انبجاس صهر المعادن وتواطؤ أوراق الشّجرِ
وهذا الذي يسمّونهُ أنا حين النّهار ينسدلُ
وحين الأبواب تنفتح والكلام عن الموت يبتدئُ.

VII

لا شيء يقدر على انتزاعه من هاجس الغرفة السّوداء. منحنيا على دنّ يبحث تحت وجه الماء عن وجههِ: دوما حركة الشّفاه تنتصرُ.

وجهٌ متحيّرٌ، وجه في ضياع، هل يكفي مسّ أسنانها كي تموت؟ عساها، لملامسة الأصابع تبتسمُ، مثلما الرّمل تحت القدمين يستسلمُ.

VIII

أسيرةً بين لصّين في المساحات الخضراء متكلّسة
ورأسكِ الحجريّ لستائر الرّيح مستسلمُ،
أراكِ تلجين الصّيف
(كما عباءة مأتميّة في لوحة الأعشاب السّوداء)،
أراكِ تصرخين في وجه الصّيف.

IX

يقولون لهُ: احفر هذا القليل مِن طريٍّ الأرض، رأسه، حتّى تصادفَ أسنانُك الصّفاة.

سريع التأثّر بالتّعديلات فقط، وبالمجاز، وارتعاد التّوازن، والحضور المؤكّد في انفجاره الآن من كلّ ناح، يبحث عن نضارة الموت المُغيرِ، في يسر يفوز بأبدية من الصّبا خالية، وبكمال بلا حروق.

حول هذا الحجر يستشيط الوقت غيظا. من مسّ هذا الحجر: قناديل الأرض تدورُ، والإضاءة الخبيئة تنتشرُ.

في حركة دوف وفي ثباتها

١٩٥٣

مسرح

I

أَراكِ على المصاطب تَركضين،
أَراك تصارعين الرّيح،
والبرد على شفتيكِ ينزف.

ورأيتكِ تتحطّمين وبموتك تلتذّين يا أجمل من صاعقة حين تلطّخ مرايا دمكِ البيضاء.

II

بلذّة رتيبة يصدّعكِ الصّيف الذي يهرمُ، كنّا نكره الانتشاء غير الكامل بالحياة.

«بل اللبلاب، كنتِ تقولين، بل تعلّق اللبلاب بأحجار ليلهِ: حضورٌ بلا نهاية، وجهٌ بلا جذور.

«آخرُ مرآة محظوظة مخلبُ الشّمس يمزّقُها، الأَولى أن تموت على الجبل هذه القريةُ.

«الأَولى من هذه الرّيح...»

III

كانت الرّيح أقوى من ذاكرتنا، ذهولُ الفساتين
وصرخة الجلمدِ ـ وكنتِ تمرّين أمام هذي الشّعلِ
مسوّرة الرّأس مفلوقة اليدين وكُلّكِ
بحثٌ عن الموت في حركاتك المُصدِحةِ.
مِن نهديكِ النّورُ كان يضيءُ
تسودينَ كنتِ مُغادِرةً رأسِي.

IV

صَحوتُ، كانت تمطرُ، الرّيح تلجكِ، يا دوف، يا بُراحا صمغيّا بجانبي يرقدُ. على مصطبة أنا في كُوّة الموتِ. أنجمٌ هائلة من ورق الأشجار تَرتعدُ.

الذّراعُ التي ترفعينها، فجأة، فوق بابٍ، تُضيئني عبر العصور. قريةٌ من الجمر، في كلّ آن أراك يا دوف تولدين.
في كلّ آن تموتين.

V

الذّراع التي تُرفع والذّراع التي تُدار ليستا
مِن ذات الآن إلاّ في رؤوسنا المُثقلةِ،
أمّا إذا تراجعت هذه البُسطُ مِن المروج والوحلِ
فلا شيء من مملكة الموت يبقى عدا بعض نار.

السّاقُ العارية التي تلجُها العاصفةُ
دافعة أمامها بداياتِ المطر
لا تهديكِ إلاّ إلى وصيد هذه المملكةِ،
يا حركاتِ دوف، يا حركاتٍ هي الآن جدّ بطيئة، يا حركاتٍ
مُعتمة.

VI

أيُّ ذُبول أصابكِ، أنتِ النّهرُ الجوفيّ، أيُّ شريان فيكِ ينقطعُ، حيثُ الصّدى يقصفُ مِن هطولكِ؟

هذا الذّراع الذي ترفعينه فجأة ينفتحُ، يشتعلُ. وجهكِ يتراجعُ. أيُّ ضباب متكاثفٍ ينتزع منّي نظرتكِ؟ يا جرفا من الظلّ المتثاقلِ، يا حدّ الموتِ.

ذراعاتٌ صامتة تستقبلكِ، أشجارا من ضفّة أُخرى.

VII

مَجروحةٌ بين الأوراق مُرتبكة،
لكنّها مأخوذةٌ بدمِ الدّروب الضّائعة،
بكثافةٍ في العيش راغبةٌ.

رَأيتكِ، على حدّ نزاعكِ في الرّمل منغرزة
تترجّحين على تُخوم الصّمتِ والماء
والثّغرُ ملطّخ بآخر الأنجمِ، في صرخةِ هلَعٍ
عن سهرِ ليلكِ تنقطعين.

أيّتها الرّاسمةُ في الهواء المتجمّد فجأة كما الصّخرةُ
من بريق المعدن إشارة جميلة.

VIII

الموسيقى الغريبة من اليدين تبتدئ، من الرّكبتين، ثمّ هو الرّأس ينهارُ. الموسيقى تتوكّد خلف الشّفتين، تأكّدُها يلج المنحدرَ الباطنيّ للوجهِ.

الآن، تتصدّعُ زوايا الوجه المخشّبةِ. الآن يُشرَع في اقتلاع النّواظرِ.

IX

بيضاءَ رأيتُكِ تحت سقفٍ من الحشرات، هزيلة الضّياء، جانبيّا
وفستانكِ ملطّخٌ بما تمجّ القناديلُ،
أكتشفكِ ممدّدة،
فمكِ أبعدَ من نهرٍ في الأفق البعيد على الأرض ينكسرُ.

كَونٌ مُبعثرٌ يُجمّعهُ الذي لا يُقهرُ،
حُضورٌ مُستعاد تملُّكُهُ في مصباح الصّقيع،
أكتشفك دائما ميّتة أيّتها المترصّدةُ،
يا دوف يا رواية الفينيق إنّني في هذا الصّقيعِ أسهرُ.

X

أَرى دوف ممدّدة. في الشَّرف الأعلَى مِن فضاء الجسد أسمعُها تُدمدمُ. الأمراءُ ـ السّودُ يقدّمون منهم الفكّين عبرَ هذا الفضاءِ حيث يدا دوف تنبسطان، عظاما مِن لحمها منزوعةً كأنّها عكاشٌ رماديٌّ يضيئهُ عنكبوتٌ هائلٌ.

XI

مغطّاة بطحلب الأرض السّاكنِ،
تجوبُها دوائرُ عنكبوتٍ حيّ، هي بعدُ
لمصيرِ الرّمل دائنةٌ
تفاريق معرفة خفيّة.

مبهرجة لحفل في الفراغ
والأسنانُ عارية كما للوصال،
نبعُ موتي الرّاهن الذي لا يُطاق.

XII

أرى دوف ممدّدةً. في مدينة الرّيح القرمزيّة، حيث على وجهها الغصون تُقاومُ، وجذور تهتدي في جسمها إلى طرقاتها... أراها تُشعّ كما الهزجُ العارم للحشرات. كما عزفٌ مريعٌ.

في مضيقِ الأرض المعتمِ، دوف مدمَّرةً، متهلّلةً، بقنديل السّهول المتعرّقِ تلتحقُ.

XIII

وجهكِ هذا المساء بالأرض مُضاءٌ
لكنّني أرَى التعفّنَ في مقلتيك
ولفظةُ وجهٍ أضاعت المعنى.

البحرُ في داخلنا تضيئهُ نسورٌ تُحوّمُ،
هذه صورة.
أتملّككِ باردة في عمقٍ حيث الصّورُ لا شيء باتت تقولُ.

XIV

أرى دوف ممدّدة. في غرفة بيضاء، بالجصّ مطوّقتان عيناها، والفمُ يأخذهُ الدّوار، واليدان مغلولتان إلى العشب الغزيرِ، الذي يغزوها من كلّ النّواحي.

البابُ يُفتحُ. جوقة تتقدّمُ. وأعينٌ وحشيّة، صُدورٌ متزَغّبة، ورؤوسٌ مقرورة ذاتُ مناقير ومخاطم تغمرهُ.

XV

أيّتُها المحظيّة بجانبيّة حيثُ الأرضُ ضاريةٌ،
أراكِ تَندثرين.

العشبُ العاري على شفتيكِ وفلَق الصوّان
يبتكران ابتسامتكِ الأخيرة،

علمٌ بعيدُ الغور فيه يتكلّسُ
كتاب الحيوان القديم الخيالي.

XVI

يا إقامة مِن نار قاتمةٍ فيها تلتقي مُنحدراتنا! تحت قبابها أراكِ تشعّين، يا دوف ثابتة، واقعة في شباك الموت المُتقاسمة.

دوفُ مبتكِرة، مشوّشةٌ: حينَ على خُطى الشّمسِ في الفضاء الكئيبِ، بطيئةً تصل الطّوابقَ السُّفلى.

XVII

الآن يَخترق الفجّ الفمَ،
الآن الأصابعُ الخمسة في متاهات الغابة تتشتّتُ،
الرّأسُ أوّلا يغرقُ بين الأعشاب الآن،
يتخضّبُ الحلق بالثّلج وبالذّئاب الآن،
تُرسلُ العينان بريح الموت على العابرين، ونحن في هذه الريح، في هذا الماء، في هذا البرد نوجد الآن.

XVIII

حُضورٌ دقيق لا شعلةَ بعد الآن تقلّصهُ، دوف تُرافق البردَ الخفيّ، تقتات من هذا الدّم الذي يُولد من جديدٍ وينمو حيث القصيدة تتخرّقُ.

هكذا وجبَ أن تتبدًّي على النّهايات الخفيّةِ، ومن موقع كئيب حيث ضياؤكِ يتضاءلُ، وأن تكابدي المحنة.

أيّتها الأجملُ والموت في ضحكتكِ ينفثُ! الآن على لقائكِ أجرؤُ، الآن أحتملُ روعة حركاتكِ.

XIX

في أَوّلِ أيّام البرد يفلتُ الرّأسُ منّا
كما سجينٌ يتسرّب من الأوزون الأعظم،
غير أنّ هذا السّهم في لحظة يا دوف يسقطُ
وعلى الأرض يكسّر أكاليل رأسهِ.

هكذا توهّمنا تجسيدَ حركاتنا مرّة أخرى
ورُؤوسُنا مدحوضةٌ ونشرب ماءً فاترا ورُزمٌ
مِن أوراق الموت تزيّن ابتسامتكِ،
كأنّها السّعي إلى فتح ثغر في عميق اليابسة.

إشاراتٌ أخيرة

إلى الأشجار

أيّتها التي كنتِ رسما على دربها دارسة،
وأغلقتِ عليها دروبكِ،
يقينا أنّ دوف حتّى ميّتة
ستكون ضياء وهي بعدُ لم تكنِ.

أيّها العنصرُ الليفيّ ويا أيّتها الكثافة،
أيّتها الأشجارُ، كنتِ بالقرب منّي عندما
في مركب الأموات قد ارتمتْ، مشدودَة الفمِ
إلى قسطٍ من الجوع، والبرد، والصّمتِ.

عبركِ أسمع الحوار الذي تُحاوِلهُ
مع الكلاب، مع الملاّح غائم الهيئة، وبكِ،
خلال مضيّها عبر كمّ ليل،
برغم كلّ هذا النّهر، بكِ أتعلّقُ

الرّعد المجلجلُ
الذي على أغصانكِ يتدحرجُ، والبهجةُ
التي يُضرمها في ذروة الصّيف معناهُما أنّها
تشدُّ قدرها، في توسّط كفافكِ، إلى قدري.

ما الذي نُدرك إلاّ ما يفوتُ،

ما الذي نرَى عدا ما يُعتمُ،
ما الذي نشتهي سوى ما يموتُ،
عدا الذي يتكلّم وينشقُّ؟

أيّها الكلامُ القريب منّي
غير صمتكَ ما الذي نطلبهُ،
ما البارقة إلاّ شعوركَ
العميق الدّفينُ،

إلاّ الكلام جسدًا
به يُلقى على البدء والقدم؟

الشّاهد الوحيد

I

أمّا وقد أسلمتْ
لشُعلِ البحر الوطيئة رأسَها، أما وقد فقدت
في عمقهِ المضطرب يديها، وبالضّفائر قد رمت
في عناصر الماء، والموتُ هو الطّريق العموديّ تحت الضّياء،
وصارت ميّتة
ومنتشيةً بعدُ وهي ميّتةٌ: فقد كنتِ
أيّتها الفاجرة المستهلَكة، يا فرحا صامدا لكنّه خؤون،
الشّاهدَ الوحيدَ، الدّابةَ الوحيدة الواقعة
في شراك موتكِ هذي التي،
رمالا كانت، أم صخورا، أم هجيرا، قلتِ إنّها عنكِ العلامة.

II

نحوَ الصّفصاف تنسحبُ
ابتسامةُ الأشجار تحضنها
مُتصنّعةً فرحا بسيطا باللعب
غير أنّ الضّياء على يديها المتضرّعتين كئيبٌ،
والنّارَ شرعت تغسلُ وجهها، وتُترعُ فمها
وترمي جسدها في لجّة الصّفصاف.

أيّتها المتلِفةُ ذاتها مِن حرْف المائدة السّوخريّة
في مياه الموت!
ها أنتِ مرّة أخيرة
تُضيئين بنهديك للضّيوف،
ناشرة أنوارَ هامتك الثّلجية
على قحل المواقع النّارية.

III

القليلُ من الضّياء بين الشّجرة والعتبة
كاف لكي تَتبي مرّة أخرى، ولكي تموتي،
وحتّى أظنَّ أنّني ثانية أحيَا

في ضياء الفَيء الذي كنتِ.

حتّى أنسَى
وجهكِ صارخا على كلّ جدار،
أيّتها الفاجرة التي، لعلّها في وِفاق
مع هذا القدْرِ من الظلّ المرِح فوق الحجرْ.

IV

هل أنتِ ميّتة حقّا أم بعدُ مازلتِ
تتعابثين: تتصنّعين الدّم والشّحوب،
أيّتها التي، بولَع تنصاع للموت الذي يَحكمها
لكوننا لا نعرف إلاّ أن نموت؟

هل أنتِ ميّتة حقّا أم بعدُ مازلتِ
في كلّ مرآة تتعابثين
بإتلاف ظلّكِ، ودفئك، ودمكِ
في ظلام وجه متجمّدٍ؟

V

أين هو الأيلُ الذي الآن يشهدُ
تحت أشجار القِصاص، هذي التي
فيها طريقا من الدّم قد فَتَحتْ،
وصمتا جديدا قد ابتَكرَتْ.

لابسة فستانَها كما بحيرةٌ من الرّمل،
كما بردٌ كما أيلٌ على التّخوم مطاردُ، فهل كان لزاما
أن تموت لابسة فستانها الأجمل،
ومن مفعاة تعود؟

VI

علَى وَحلِ الشّتاء، يا دوف، كنتُ أبسطُ
سحنتكِ الغابية الوضّاءة والخفيضة.
كلّ شيء يتلاشى، كان ظنّي، كلُّ شيء يبعدُ.

فظّة أراكِ ثانيةً ودومًا ضاحكة،
أصيلُ الفصول الحبلى شعرُكِ
كان على شمس وجهكِ الشّاحب ينسدلُ.
منسلّةً أراكِ ثانية. في تخوم الشّجرِ
كمثل نارِ عندما
كتمَ الخريفُ صرخة الإعصار في قلب الشّجرْ.

يا ذات السّواد الأدهمِ، أيّتها القفر الموات! أخيرا أراكِ ميّتةً
برقا لا يهدأ، يتحمّل وزرهُ العدمُ،
زجاجَ نافذة حالما انطفأَ، والبيتُ مِن عتمة.

دوفُ تتكلّم

أيُّ كلام قربيَ انبجسَ،
أيُّ صراخ يشبّ على فمٍ شاردٍ؟
بالكاد أسمعهُ في وجهيَ يصرخُ،
بالكاد أحسّ بهذا العصف الذي يناديني.

مع ذلك فهذا الصّراخ الذي يَعلونيَ عنّيَ يصدرُ،
مُحوّطٌ أنا في غربتي
أيُّ صوت سماويّ أو أيُّ صوت غريبٍ
قد ارتضى الإقامة في صمتي؟

دوف تتكلّم

I

مرّاتٍ، كنتِ تقولين،
حينَ في الفجر تائهةً على دُروب مُعتمة،
كنتُ أشارك الحجرَ تَخَدُّرَهُ،
ضريرةً مثلُه كنتُ.
لكنّها الرّيح أقبلتْ
وملهاتي في مشهد الموت بانَتْ.

الصّيفَ كنتُ أرُومهُ،
عنيفا، لكي أكفكف دمعي،
لكنّ هذا البردَ الذي يكبر بين جَوارحي،
أقبلَ، وأفقتُ، وتألّمتُ.

II

أيُّها الوقتُ النّحسُ
أيَّتُها الأرضُ الجرداء كأنّها الموسى!
هل كنتُ أرغبُ الصّيف الذي هشَمَ
هذه الشدّةَ في الدّم القديم؟

سعيدةً كنتُ حقًّا
إلى حدّ الموت.
عيناي ضائعتان، يداي تنفتحان
علَى وحلِ مطرِ أبدي.

كنتُ أصرخُ، بجبهتي كنتُ أواجه الرّيح...
لمَ الكرهُ، ولمَ البكاء، حيّةً كنتُ
الصّيفُ النّافذ كان يهدّئ روعي، وكذا النّهار.

III

لينطفئ الكلَمُ
على هذا السّطحِ للكون
حيثُ بأنفسنا نُخاطر،
على هذا القحط تعبرهُ ريحُ التّناهي الوحيدة.

على الذي واقفا كان يحترقُ
كما داليةٌ، على المغنّي القصيّ أن يتدحرجَ
مِن الذّرَى التي تُنير للعنصر الكثيفِ
ذاك العصيَّ عمّن يَصفه.

فَلتهمُدِ الحركة
في هذه الغرفة الوطيئة حيث تلتحقين بي
ولتُضيّق مدفأةُ الصّراخ
على كلماتنا المحمرّةِ.

لينهضِ البرد عبر موتيَ وليتّخذ معنى لهُ.

صوت

تذكَّر الجزيرة حيث تُوقَد النّيرانُ
من كلّ زيتونة سريعة الاشتعال عند منحدر الذُّرى،
حتّى يكون الليل أعمق
ولا تكونَ الرّيح عند الفجر إلاّ عميقة.
عديد الطّرقات المعتمة
ستجيدُ إقامة مملكة فيها نُجدّد الكبرياء الذي كنّا عليه،
إذ لا شيءَ يكبرُ قوّة خالدة
إلاّ شعلة أبديّة وإلاّ عندما الكلّ مُحطَّم.
أمّا أنا فلاحقةٌ بهذه الأرض المعفّرة،
سأُنيمُ قلبي على جسمها المكتسَح.
ألستُ حياتكَ في أعمق ذعرها، تلك التي
ليس لها من آية إلاّ الفينيق في المِحطبةِ؟

صوت

كما لهبٌ حملتُ كلامي إليكَ
دياجيرَ أعتى من الهبوبِ على الشّعلِ.
ولا شيء في هذا الصّراع الشّديد قد أخضعني
لا طالع السّوء ولا الضّلال.
كذا عشتُ لكن بشعلة معضّدةٍ
ما عرفتُ غير ليّاتها
واللّيلَ الذي أعلمُ أنّه قادم حينما
زجاجُ النّوافذ غير المحظوظ من توثّبهِ ينهار؟
ما أنا إلاّ الكلامُ منذورا للغياب،
كلّ اجتراري سيهدمه الغياب.
بلَى، هلاكٌ قريب لكوننا محض كلام،
مهمّة قاتلة هي وتتويجٌ سُدًى.

البيّارة

السّمندل

I

والآن، في غرفة الصّيف الأخيرة أنتِ يا دوف.

على الجدار سمندلٌ يتسرّبُ. رأسه اللطيف، الشّبيه برأس الرّجل ينشر موت الصّيف. «أريد أن أُتلَف فيكِ، أيّتها الحياة، تصرخ دوف. أيّها البرق الخاوي، اركضْ على شفتيّ، ألجني»!

«عمياءَ أرغبُ أن أكون، للأرض أن أستسلمَ. ألاّ أعود عارفة أيّ ذرّى تملكني».

II

ليلة بكاملها حلمتُ بكِ خشبيّةً، يا دوف، حتّى أُحسن إهداءكِ إلى الشّعلة. ونصبًا أخضر مقرونا باللحاء، لألتذّ أكثر برأسكِ الوضّاء.

مُكابدا تحت أصابعي صراعَ الأتون والشّفتين: كنتُ أراكِ تبتسمين لي. مع أنّ رأدَ الضُّحى فيكِ كان يُبهرني.

III

«انظريني، انظريني، إنّي قد عدوتُ»!

إنّي بقربكِ، يا دوف، إنّي أُضيئكِ. ما عاد بيننا غير هذا المصباح الحجريّ، غير هذا القليلِ من النّور، غير أيدينا التي يترقّبها الظّلام. سمندلاً مُداهِما تظلّين ثابتة.

بعدَ أن عشتِ اللحظة حيث الجسم الأكثر قربا يتحرّك عن معرفةٍ.

IV

هكذا ساهرينَ نبقى في أوج ليل الوجود. دغلٌ وارتخى.

هجرة خفيّة، عبر أيّ طير دمويّ كنتِ في دياجيرنا تمضين؟

بأيّة غرفة كنتِ تلتحقين، حيث هولُ الفجرِ على زجاج النّوافذ
كان يشتدُّ؟

المُقام الحقّ

ليُهيّأ مكانٌ للذي يقتربُ،
إنّ شخصًا أصابهُ البردُ لا بيت لهُ.

شخصٌ مَهُوس برفرفة سراجٍ،
بالوصيد المُضاء لبيتٍ وحيد.

وإنْ ظلّ مُنهكًا من الغمّ والتّعبِ،
فلتُتلى عليه أدعيةُ الشّفاء.

ما الذي يلزمُ هذا القلبَ الذي ما كان غير السّكونِ،
عدا كلماتٍ تكون العلامةَ والصّلاة،

وشيءٍ كما بعضُ نارٍ فجأة في الليل تنبجسُ،
وطاولةٍ للضّيوف تَلوح ببيتٍ فقير؟

مُقام السّمندل

مأخوذًا يتثبَّتُ السّمندلُ
ويفتعلُ الموت. تلك هي
أُولى خطوات الوعي في الحجرِ،
الأسطورةُ الأكثرَ قِدما،
العقلُ، نارٌ عظيمة مُخترَقة.

كان السّمندلُ عند منتصف الجدار،
في وضح نوافدنا.
باردا كان وجههُ، لكنّني
كنتُ أرى قلبَه ينبضُ دون انقطاع.

فيا مُحرّضتي ويا غايتي،
يا استعارةَ كلّ ما هو مُجرّد، كم أحبُّ
لذلك من يَضمّ في صمتهِ

قوّة الفرح الوحيدة.

كَم أُحبّ الذي
بكلّ رُكام جسمه يُجاري النّجوم،
كم أُحبّ الذي
ينتظرُ ساعة النّصر، ويحبس أنفاسهُ، ويتعلّق بالأرض.

أمس السّائد القفرُ

١٩٥٨

وعيدُ الرّقيب

وعيدُ الرّقيب

I

ماذا رغبتَ أن تبسط فوق هذي المائدة،
عدا نارِ موتنا المزدوجة؟ ارتعبتُ،
أتلفتُ المائدة المحمرّة والعاريةَ،
في هذه الأرض حيث تنبجسُ الرّياح السّاكنة.

ثمّ هرِمتُ. في الخارج، حقيقة الكلمة
وحقيقة الرّيح أوقفتا صراعَهما.
النّارُ، التي كانت لي المُصلّى، انسحبتْ
ما عدتُ خائفا حتّى، أصبحتُ لا أنام.

II

انظرْ، كلّ الطّرقات التي كنتَ تسلكها
الآن تنغلقُ، ما عاد متاحا لكَ
أن تمضي حتّى ضائعا. الأرضُ التي تتخفّى هيَ
ضجيج خطوِك الذي، عن التقدّم انقطعَ.

لمَ تركتَ الشّوك يُخفي
صمتا عميقا كنتَ أقبلتَ عليه؟
وحيدةً تسهر النّار في حديقة الذّاكرة
وأنتَ، يا ظلاً خلف الظلّ، أين أنتَ، ومن تكون؟

III

ما عدتَ تأتي إلى هذي الحديقة
الطّرقاتُ مِن وحدةٍ وألم تندثرُ،
والعشبُ عن وجهكَ الميّت يخبرُ.

ما عاد يشغلكَ
أنّ الكنيسة المُعتمة تخفّت وسط الحجَرْ
وأنّ وجهكَ المُغشّى بشمس جدُّ محمرَّة تخفّى وسط الشّجرْ.

صارَ يكفيك
أن تموت وئيدا كما في النّعاس، وحتّى الظلّ
الذي نقترن به ما عُدتَ ترغبهُ.

IV

والآن أنتَ وحيد برغم هذي النّجوم،
الوسطُ منك قريبٌ وعنك بعيدٌ، مشيتَ،
قادرٌ على السّير أنت، لا شيء بعدُ قابلٌ أن يتغيّرَ
الليلُ ذاتهُ دائما، الذي لا ينتهي.

وانظر، عن ذاتك صرتَ منفصلاً،
أبدا نفسُ الصّراخ، غير أنّك لا تسمعهُ،
هل أنت الذي يموت، أنتَ الذي ما عدتَ في قلقٍ،
هل أنتَ أيضا تائهٌ، أنتَ الذي لا تسعَى؟

V

الرّيحُ، سيّدةُ العويلِ الأقدم، تَصمتُ،
هل أكون آخر المتجنّدين للأموات؟
الآن النّارُ ما عادت سوى رماد وذكرَى
وصوتِ جناح مُطبقٍ، صوتِ وجه ميّتٍ.

أَيُرضيكِ ألاّ تحبّي إلاّ حدّة الماء الباهت
حين ملاكُ ليلكِ يأتي ليغلق المرفأَ
وحين يُضيّع في الماء المتجمّدِ بالمرفأ
آخرَ البارقات المأسورة في الشّراع الميّت؟

أُوّاه، حسبكِ أن تتحمّلي كلاميَ القاسي
سأقهرُ النّوم لأجلكِ والموت، لأجلك أتحدّى
في الشّجرة التي تتحطّمُ
الشّعلة التي ستكون المركبَ والمرسَى.

سأشعلُ النّار لأجلكِ خارج الوقت والإقامة
كما ريحٌ إلى النّار تسعى، إلى ذُرى الغاب السّاكنِ

إلى المدى في النّداء حيث النّجوم تنهمرُ
والقمرُ المقرون ببلبلة الأموات ينهارُ.

صخب الأصوات

صَخبُ الأصواتِ الذي كان يُعيّنكَ انكتمَ.
وحيدا أنتَ داخل سُور المراكبِ المعتمةِ.
على هذا التّراب المتحرّكِ تمشي، ولكن
لكَ حرفٌ آخر غير هذا الماء الباهتِ في داخلك،

مُرتجى آخرُ، هذا الرّحيلُ الذي نُؤكّدهُ،
هذه الخطواتُ الكئيبةُ، هذه النّارُ التي قدّامنا تترنّحُ
النّهرُ ذو المياه المتربةِ البسيطة أنتَ لا ترغبُهُ
ولا دربهُ المكوّر حيث الرّياحُ تَلينُ.

الأَوْلَى، تقولُ، الأَوْلَى، على ضفافِ أكثرَ موتًا،
قصورٌ كنتُ منها أعلَى الخراب،
الليلَ لا ترغبهُ إلاّ بما هو ليلٌ
يحملُ أقدارك، مشعلَ كلِّ عُدُولٍ.

الصّيف الجميل

كانتِ النّارُ تلازم أيّامنا وتُتمُّها،
كان سيفُها يثلمُ الوقت في كلّ فجر مُكفهرّ،
كانت الرّيح على سطوح غرفنا بالموت تصطدمُ،
كان البرد على أكتافنا لا ينقطعُ.

كان صيفا رائعًا، باهتا، كاسرا ومُعتمًا،
كنتِ أحببتِ عذوبةَ المطرِ في الصّيف
والموتَ الذي كان على الصّيف يُهيمنُ
مُرجِفا راية جناحيهِ الرّماديين.

في هذه السّنة، توصّلتِ بالكاد أن تتبيّني
علامةً دائمةَ السّواد قدّامكِ
تحملها الحجارةُ، والرّياح، والمياه، وأوراق الشّجر.

هكذا السكّةُ الحديدية كانت تَقرضُ الأرض الطَّرية
وكبرياؤكِ أحبّ هذا الضّياء الجديد،
نشوة أن ينالنا في البرّ الصّيفيّ خوف.

في صمتِ وَهْدٍ غالبا ما أسمعُ

(أو أرغب أن أسمع، لا أعلم)

جسمًا يسقط بين الفِنن.

طويلا وبطيئا هذا السّقوطُ بلا تبصّرٍ، هذا الذي

لا صرخة أبدا تأتي لتُنهيهِ أو تقطعهُ.

عندئذٍ أُفكّرُ في مواكب الضّياء

في الموطن خارجَ الموتِ والولادةِ.

إلى أرض بكر

صوت

اصغِ إليّ أعودُ إلى الحياة
في هذه الغابات خلف أوراق الذّاكرة
حيث أمرُّ خضراء،
بسمة مُجيّرة بغابر النّبت في الأرض،
أصلاً فحميّا للنّهار.

اصغ إليّ أعودُ إلى الحياة، وأُوصلكُ
إلى بستان الحضورِ
المهجور في المساء والمغطّى بالظّلالِ
مُقاما يليق بكَ في الحبّ الجديد.

أمسِ والسّائدُ قفرٌ، ورقةً بريّة كنتُ
وحرّةً في أن أموت،
غير أنّ الوقت؛ عويلَ الوُهود الموحشِ،
في أحجار النّهارِ كان يُعمّق حزنَ الماء.

هُنا، على الدّوام هُنا

في هذا المُقام المضيء، هنا، ما عاد الوقتُ من سحَرِ
النّهار ذو الرّغائب اللاّمحدّدة بعدُ قد طلعَ.
مِن سرابِ أغنيةٍ في حُلمك ما بقيَ
غيرُ هذا الوميض المُقبلِ مِن حجَرْ.

هُنا، وحتّى يجيء المساء.
وردةُ الأشباح تجولُ فوق الجدران.
وردةُ الأيّام تُلقي بأوراقها في سُكون.
وِفق رغائبها البلاطاتُ تقودُ هذي الخطواتِ المأخوذةِ بالضّياء.

هُنا، على الدّوام هنا. أحجارٌ فوقها أُخرى
شَيّدت البلدَ الذي حكتهُ الذّاكرة.
بالكاد صوتُ الثّمار البسيطة التي تقعُ
مازالَ فيك يثيرُ الوقتَ الذي سوف يُشفي.

الصّوت ذاته، دوما

كَما الخبزُ الذي ستقسّمينهُ بيديكِ أنَا،
كما النّارُ التي ستُشعلين، كما الماءُ الزّلال الذي
إلى أرض الموتَى سيصحبكِ.

كَما المجاجُ الذي
لأجلكِ سوّرَ الضّياءَ والمرسَى.

كَما طيرُ المساء، الذي يمحو الضّفافَ، كمَا
ريحُ المساءِ فجأة أكثرَ عنفا وبردًا.

طائر الخرائب

طائرُ الخرائب
من الموت يُفلتُ،
في الحجر الأشهب تحت الشّمس يُعشّشُ،
قد جاوز كلَّ عذابٍ، كلَّ ذاكرةٍ، ما عاد يعرفُ ما الغدُ في الأبدِ.

حجارةٌ مَرسومة

١٩٦٥

الصّيف ليلاً

الصّيف ليلا

I

يتهيّأُ لي، هذا المساء،
أنّ السّماء المكوكبةَ،
في انعتاقٍ منّا تقتربُ، وأنّ الليل،
خلفَ نيرانٍ كثيرة، أقلّ ظلاما.

والغصونُ أيضا تُضيءُ تحت الغصون،
الأخضرُ، وبرتقاليّ الثّمار النّاضجة، تفاقم،
قنديلاً لملاكٍ مُقبلٍ، نَبضَ نورٍ مختفٍ يتعلّقُ
بالشّجر الكلّي.

يتهيّأُ لي، هذا المساء،
أنّا دخلنا الحديقةَ، حيث الملاكُ
أعادَ بلا رجعة غلقَ الأبواب.

II

مركبٌ صيفي،
وأنتِ كالواقف عند الجؤجؤ، والوقت ينقضي،
ناشرةً قماشات ملوّنةً، وهمسا تتكلّمين.

في هذا الحلم الأيّاريّ
كانت الأبديّة تطلعُ في ثمار الشّجرة
وكنتُ أُهديكِ الثّمرة التي تحرّرُ الشّجرة،
بلا كرَبٍ بلا موتٍ، مِن عالم مشطور.

بعيدا يتيهُ الأموات في بيد المُجاج،
ما عاد للصّحراء كونٌ، كلّ شيء كائن داخلنا
والموتُ كفّ عن الوجود، شفتاي
تلمسان تماثلاً على البحر تبدّد.

أيّها الصّيف الدّعيُّ، كنتَ عندي صافيا
مثلما الماء الذي بدّله النّجمُ، مثلما صوتُ المُجاجِ
تحت أقدامنا حيث بياض الرّمل يطلعُ من جديد
ليبارك أجسادنا المتكدِّرَة.

III

الحركةُ
هي النّشازُ بدت لنا، فكُنّا نمضي
في الثّبات كما تحت السّفينة
تتحرّك أغصان الموتى ولا تتحرّكُ.

كنتُ أحدّثكِ عن جؤجؤ مركبي،
السّعيد، اللامبالي، الذي يقود
مُغمض العينين، إلى نصفهما، مركبَ العيشِ
والذي يحلمُ كما يحلمُ، لكونه قراره العميق، وينحني
على الصّدر حيث الهوى القديمُ يضطرمُ.

مُبتسما، مبكّرا، مُبلّلاً
على الدّوام انعكاسَ نجم ثابتٍ
في الحركة الفانية.
أعشابُ البحر ترغبهُ.

IV

يا أرضًا
كأنّها السّفينة قد تَجهّزت،
انظري
إنّه وجهُكِ الجؤجؤيّ ملطّخٌ بالدّمِ.

قد أوهنَ النّجمُ، والماء، والنّعاس
هذا الكتفَ العاري، الذي ارتعدَ
ثمّ إلى الشّرق مال حيث القلبُ يجمدُ.

البحرُ الرّاكد قد حوى
جسمَها ذي الظّلال المتحرّكة،
مع ذلك فهي تلوي عنقها كَمنْ
على أنفاس الأموات يضغطُ.

V

هي ذي اللحظة
التي يكاد النّهار فيها، وكذا الليلُ، ينعدمُ
وبقدرِ الكوكبِ ما نَما
ليبارك هذا الجسمَ الأسمرَ واللامحدود والمبتسمَ،
فإنّ ماءً، خالٍ من الخرافة يتنقّلُ.

ستفكُّ هاتان اليدان
الهزيلتانِ التّرابيّتان عقدة الرّؤى القاتمةَ.
الضّياءُ المحميّ سيهجعُ
فوقَ مائدةِ المياه.

الكوكبُ يهوَى المجاج،
في هذا اللباس الرّماديِّ سيحترقُ.

VI

طويلا كان الصّيف.
كوكبٌ ثابتٌ على الشّموس الدّائرة كان يهيمنُ.
كان صيفُ الليلِ يحملُ في يديه المضيئتين صيفَ النّهارِ وكنّا
بين أوراق الليل همسًا نُحدّث بعضنا.

النّجمُ الخليُّ، والجؤجؤُ، والطّريق المضيئة الواصلةُ بينهما
عبرَ الفضاءاتِ والمياه السّاكنة.
كلّ ما يُوجد ملؤهُ الحركة، كأنّه الزّورقُ
يدورُ ويزلجُ، ما عاد في الليل يعرفُ هَيكلهُ.

VII

أما كان علينا الصّيفَ أن نعبرهُ
كما محيطٌ ثابتٌ شاسعٌ وأنا ساذجا أتمدّدُ
على فم الجؤجؤ، على عينيه، فوق هيكلهِ،
مُغرما بالصّيف، مُستغرقا عينيكِ اللتين بلا ذاكرة هُمَا،

أما كنتُ الرّؤيةَ التي لا تُبصرُ، التي تتكثّفُ
ولا تتكثّفُ، والتي لا ترغبُ، من لونك الصّيفيِّ
إلاّ حجارة شهباء أخرى تُخبّئها
لصيفٍ يطولُ، حيث لا شيء يمكن أن ينتهي.

VIII

لكنّ عاتقكِ يتمزّق وسط الشّجر،
أيّتُها السّماءُ المرصّعة بالنّجوم، وفمكِ يسعى
إلى الأنهر المتنسّمة الأرضَ حتّى
تعيشين بيننا ليلتكِ المهمومةَ والمتشهّية.

حذو القلب، مازلتِ يا صورتَنا
لنفس الجرح حاملةً،
لنفس الضّياءِ حيث السّيفُ يُعتملُ.

انشطري، يا أنتِ الغيابُ وجزرُهُ.
وبنا احتفي، نحن الذين لنا طعمُ الثّمارِ التي تقعُ،
وفي المُجاج على شواطئكِ المهجورةِ
بأخشاب حُطام الموت امِزجينا،

يا شجرةً فروعُها الليليةُ مزدوجةٌ، دائما مزدوجة.

IX

يا مياهَ النّائم، يا شجرَ الغياب، أيّها الوقتُ بلا ضفافٍ،
في أبدكَ ليلة سوف تَنقضي.

وهذا اليومُ الآخر كيف نُسمّيه تُرى؟
هذي الأشعّة الحمراءُ الممزوجة بالأسودِ؟

في مياه النّائم الأضواءُ تضطربُ.
لغة تتكوّنُ، تشاركُ إدغالَ النّجوم الواضحَ في المُجاج.
وإذا هيَ اليقظة أو تكادُ، وإذا هي بعدُ الذّكريات.

حجارة

«انظريني
هناكَ، في ذاك الفضاءِ يعبرهُ
ماءٌ سريع وأسودُ...»

كنتُ أُبدعُكِ
تحت مركبٍ، سطحُ مائهِ عاصفٌ، كان يأخذُ
الجزءَ الصّغير مِن أحمرِ فيكِ، لا يَتجزّأُ،
وكان يُشعلهُ «هناك»، عند مصبِّ نهر الموت.

حجارة

كانَ يقول لي، أنتِ ماءٌ، أنتِ الماءُ الأشدّ ظلمةً، الأكثر نضارة حيث يُتذوّق الحبُّ الذي لا يُقتسمُ.

حبستُ خَطوَهُ، ولكن بين أحجارِ أُخَرْ، في الشّراب الأبديّ للنّهارِ الأقلّ ضياء.

حجارة مرسومة

حُظوةٌ، كَنتِ تقولين، قنديلُنا وأوراقُ الشّجرِ،
نُزلاءُ مساءاتِنا هؤلاء.
يَسحبون على البلاطاتِ مراكبهُم إلى عندنا،
يعرفون توقَنا إلى الأبَدي.

الليلُ المكتملُ ضياؤهُ صارخٌ،
قد أقبلُوا، خطواتُهم بيّنة، أفاقونا،
في ارتجافِ أصواتنا كلامهُم يَبتدئ.

خطوُ الكَواكب يقيسُ أرضيةَ هذا الليل المبلّطة، وهُمُ
بنيران عديدةٍ يمزجونَ ظُلمة الإنسان.

حجارة

كانَ يرغبُ، دُون أن يَعلمْ
وقد انتهى، دُون أن يَملكْ.
الأشجارُ، والأدخنةُ،
وكلُّ مقرّات الرّياح والاستياءِ
كانت منازلَهُ
أبدًا
غيرَ موتِه ما اعتنق.

مقام الأموات

إقامةُ الأمواتِ أين هي
هل لهمُ الحقُّ مثلنا في الطّرقاتِ،
هل يتكلّمونَ، هل أنّ كلامَهم أصدقُ،
هل همُ روحُ أوراق الشّجر أم همُ الأوراق أعلَى؟

والعنقاءُ هل بنتْ صرحًا لهمْ،
وهل مدّت لأجلهمُ السّماط؟ صُراخُ بعضِ الطّيور
في أتونِ بعضِ الشّجرِ
أهوَ الفضاءُ الذي إليه يَحثّون الخُطى؟

في ورق اللبلاب لعلّهُم
يُسكنون كلامهُمُ الشّاحبَ كونهُ المرفأ
لتمزّقِ الأوراقِ، حيث الليلُ يُقبل.

حجارة

عامانِ، أو ثلاثةٌ،
أحسستُ أنّي بنفسيَ معجبة،
الكواكبُ والأنهرُ، والغاباتُ، ما كانت تُضاهيني
كانَ القمرُ على فساتيني الرّماديّة يتقشّرُ.
عينايَ المُحوّطتان
كانتا تضيئان البحارَ تحت قبابها المُعتمة،
وشعريَ كان أرحبَ مِن هذي الجموعِ
ذواتِ الأعين المهزومةِ، ومن الصّراخ الذي ما كان يُدركني.

دوابٌّ ليليّةٌ تصرخُ، إنّها طريقي،
أبوابٌ سوداء تَنغلقُ.

حجارة

طويلاً دامتِ الطّفولةُ في الحائط المُعتم
وكنتُ سريرةَ الشّتاء، الذي انحنى
بحزن، وعنف، ومرارةٍ،
على صورةٍ، على بريق نهارٍ آخر.

لا راغبا في شيء
عدا الإسهام في مَزج ضوأين،
قد كنتُ، أيّتها الذّاكرةُ
زيتَ النّهارِ في وريدها الشفّاف
مادحًا رُوحها الحمراءَ في فضاء المطرِ المُتواصلِ.

ما الذي كنتُ سأرغبهُ؟ مُجاج البحر
فوق مدينة تريَست، حين رماديٌّ
بحرها كان يبهرُ عينَيْ
رجُلِ الضّفافِ الغامضِ القابلِ للتمزّقِ.

حجارة

عوَاصفَ تتلُوها أُخرى ما كنتُ إلاّ
دربًا غيرَ مرصوفٍ.
لكنّ الطّريق كانت تُهدّئُ الأرضَ التي لا تهدأُ
قد رتّب الموتُ سريرَ الليلِ في قلبي.

حجارة

الكتابُ الرُّخاميُّ عن الشّمس
انظرْ إليه كأنّه كومةُ أحجار سوداء.
مُطوّلا قرأتُ الكتاب الرُّخامِي
إلى المكان الذي لا شمسَ فيه وصلتُ.

صوت

كنّا نتهارمُ، هُو أوراقُ الشّجرِ وأنا النّبعُ،
هُو القليلُ من الشّمسِ وأنا العمقُ،
هُو الموتُ وأنا حكمةُ الحياةِ.

كنتُ أَقبلُ أن يمنحنا الوقتُ في العتمةِ
وجهَهُ الحيوانيَّ ذي الضّحكةِ غيرِ السّاخرةِ،
كنتُ أرغبُ أن تهُبَّ الرّيح التي تحملُ العتمة

وأنّ الموتَ في النّبع العميقِ ما كان سوى تكديرِ ماءٍ
بلا قرارٍ كان اللبلابُ يَشربهُ.
كنتُ أحبُّ، كنتُ في الحلم الأبديّ منتصبة.

بلدُ الأعماق

١٩٧٢

I

كثيرا ما عانيتُ من الشّعور بالقلق، عند مفارق الطّرقات. يتهيّأ لي في هذه اللحظات أنّ في هذا المكان أو ما يبدو أنّه كذلك: هنا على خطوتين من الطّريق التي سأسلكها، والتي عنها بعدُ أبتعدُ، نعم، هنا بلدٌ من جوهر أسمى كان يبتدئ، حيث كان بإمكاني الذّهاب للعيش فيه، والذي من بعدُ أضعتهُ، ومع ذلك، لا شيء كان يشير ولا حتّى يُوحي، لحظة الاختيار، أنّه كان عليّ اتّخاذ هذه الطّريق الأخرى، فقد استطعتُ متابعتها بالنّظر، غالبا، والتحقّق من أنّها ما كانت تقصد أرضا جديدة. لكنّ هذا لا يهدّئ من روعي، إذ أنّي أعلم أيضا أنّ البلد الآخر قد لا يكون متميّزا بمناظر للآثار أو للأرض يتعذّر تصوّرها. ليس من ذائقتي أن أحلم بألوان أو أشكال مجهولة، أو بتجاوز لجمال هذه الأرض. أحبّ الأرض، ما أراه يغمرني. وحتّى أنّه يحدث لي أن أصدّق أنّ خطّ القمم الجليّ، وجلال الأشجار، وحيويّة حركة الماء في قاع وادٍ، وأناقة واجهة كنيسة، بما أنّها، جميعا، كثيفة جدّا، في بعض المناطق في ساعات معيّنة، لا يمكن إلاّ أن تكون مقصودة، ولصالحنا. هذا التّآلف له معناه، هذه المشاهد وهذه الأنواع، التي مازالت مجمّدة، ومتهلّلة ربّما، هي لغة، الأمر لا يتعلّق إلاّ بالنّظر والسّماع بقوّة حتّى يظهر المطلق، في نهاية تيهنا. هنا، في هذا التعهّد، يوجد المكان إذن.

ومع ذلك، فما أن وصلتُ إلى ما يمكن أن يَرقَى إلى الإيمان، حتّى كانت فكرة البلد الآخر تستولي عليّ بأعنف ما يكون، وتحرمني من كلّ سعادة على الأرض. إذ كلّما زدتُ اقتناعا أنّها عبارة أو مقطع موسيقي ـ في ذات الوقت علامة وماهية ـ زدتُ إحساسا وبعنف بأنَّ مفتاحا موسيقيا ينقص من تلك التي قد تسمح بسماعه. نحن في هذه الوحدة منفصلون، وما يستشعره الحدس، فالفعل لا يملك أن ينخرط فيه أو يعزم عليه. وإذا ما ارتفع صوت، صاف للحظة في هذا الصّخب الأوركسترالي، فالعهد إذن يمرّ، ويموت من كان يتكلّم، ويكون المعنى قد ضاع. فكأنّنا، من طاقات الحياة، من تراكيب اللون والأشكال، من الكلمات المتلبّدة أو المتقزّحة التي تكرّرها بلا نهاية ديمومة الطّبيعة، ما كنّا نتقن إدراك ولا تعبيرة واحدة من بين تلك الأكثر بساطة، وإذا الشّمس التي تضيء فيها، كأنّها الظّلام. لمَ نحن لا نقدر أن نسيطر على ما يوجد، كما لو أنّنا على حافّة السّطح؟ لمَ لا نقدر أن نوجد، بما يغاير الوجود على سطح الأشياء، في منعطف الطّرقات، في المصادفة: كما سابحٌ يغوص في المصير ثمّ يصعد مغطّى بالطّحالب، وجبينه أكثر عرَقا، وكذلك كتفاه ـ ضاحكا، ضريرا، ربّانيا؟ بعض الأعمال تعطينا بالتّأكيد فكرة، برغم ذلك، عن الافتراضية المستحيلة. الأزرق في لوحة بكائية إلى عازفة المزهر، لبوسّان، له الآنية العاصفة، وما يلزم من الاستبصار غير المفهوميّ لوعينا بما هو كلّ.

على هذا الضّرب من التخيّل، ألتفتُ نحو الأفق من جديد. هنا، نحن إذن مصعوقون بأذى للفكر غامض، أو أنّه بعضٌ من تعرّج

الظّاهر، نقصانٌ ما في تجلّي الأرض يحرمنا من الخير الذي بمقدورها أن تعطيه. هناك، بفضل الشّكل البديهيّ جدّا لواد صغير، بفضل الصّاعقة ذات يوم في السّماء مثبتة، أو بفعل لغة أكثر إفصاحا، أو تقليدٍ محافَظ عليه، أو شعورٍ لا نملكه (لا أقدر ولا حتّى أرغب أن أختار)، فإنّ شعبا يوجد، هو، في مكان على صورته، يحكم العالم في خفاء... في خفاء، إذ أنّني لا أتصوّر شيئا، هنا أيضا، يصطدم رأسا بما نعرف عن الكون. ليست الأمّة، ولا المكان في المطلق مجرّدين عن وضعنا العاديّ حتّى ينبغي أن نقيم جدارا من خالص الأوزون كي نحلم بوجودهما. أيّا كان ما نفتقر إليه هنا، فليس لتلك النّائيات، في تقديري، ما يميّزها عنّا عدا غرابة هيّنة تبدو في حركة بسيطة، أو في كلمة لم يحاول أمثاليَ في تعاملهم معها تعميقها. أليست البداهة هي أكثر ما يغيب عنّا؟ مع ذلك، إذا ما فَتحت صدفةٌ ليَ هذه الطّريق، فإنّني سأقدر عندها، ربّما، على الفهم.

هذا ما به أحلم، عند هذه المفترقات للطّرق، أو بعدها بقليل - ويستتبع ذلك أنّني قلق من كلّ ما يمكن أن يُيسّر الانطباع، ويبقيه، بأنّ مكانا غيره، يعرض ذاته، مع ذلك، وحتّى ببعض الإلحاح. عندما ترتفع طريق، كاشفة لي في البعيد طرقا أخريات وسط الصّخور، مع قرى مرئيّة، عندما القطار ينزلق على واد ضيّق، عند الغروب، مارّا من أمام بيوت حيث يحدث أنّ نافذة تضيء، عندما المركب يتبع ساحلا من قريب، حيث الشّمس تتحسّس زجاج نافذة (ومرّة كانت كاراكو، التي قيل لي إنّ الطّرقات ما عادت إليها توصل، فقد قرضها العوسج من زمن)، وسريعا ما سكنني الانفعال المتميّز جدّا، أظنّني

أقترب، أحسّني مطالبا باليقظة. كيف تُسمّى هذه القرى هناك؟ لمَ تلك النّار على السّطح؟ من يكون هذا الذي على مركبنا يحيّونه، على من ينادون؟ بالتّأكيد، ما أن أدرك واحدا من هذه الأمكنة حتّى ينتثر الشّعور بأنّي قد «احترقتُ». من دون أن ينقطع، مع ذلك، هذا الانطباع عن التّزايد، ومرّات لساعة كاملة بسبب صخب خطوات أو أصوات تصعد حتّى غرفتي بالنّزل، عبر مغالق النّوافذ المُوصدة.

وكابرايا، التي طالما كانت موضوعا لأمانيّ! صورتها ـ تموّجات ظلال قمم وهضاب ـ كانت تبدو لي رائعة، وما كنت أقدر أن أكفّ عن النّظر إليها للحظات طويلة، خاصّة في المساء، منذ أن كانت انبجست من الضّباب، ثاني أيّام بداية صيف، وأعلى ممّا كنتُ أعتقده، مقاما للمدى. والحال أنّ كابرايا كانت تنتمي إلى إيطاليا، ولا شيء يربطها بالجزيرة حيث كنتُ. يقولون أيضا إنّها كانت شبه مهجورة: كلّ شيء إذن كان يقرّ أنّ هذا الإسم، الذي كان يختزلها في بضعة رعاة، في تيههم الدّائم فوق موائد صخرية على سطح السّماء وسط الياسمين، منحها البَروق (بضعة أشجار زيتون وخرّوب في المتعرّجات) خاصية المثال البدئيّ وجعل منها، بالنّسبة إلى نفسي المتشوّقة، المقام الحقيقي. هكذا ظلّ الأمر لعدّة مواسم، ثمّ تغيّرت حياتي، ما عدتُ أقيم في كابرايا، تقريبا نسيتها، ومرّت سنواتٌ أُخرْ. بعدها صادف أن ركبتُ الباخرة ذات صباح من جنوة، قاصدا اليونان، ومع المساء، فجأة، شعرتُ أنّني مدفوع إلى الصّعود إلى سطح المركب وإلى النّظر باتّجاه الغرب، حيث كانت بضعة صخور بعدُ قد بانت، حيث بدأت تمرّ على يميننا، وبالقرب منّا، بضعة صخور، ثمّ

ساحل. ونظرة، فزعزعة باطنية: ذاكرة في داخلي، أعمق من الوعي، أو أكثر منه يقظة، كانت أدركت قبل أن أعلم. أهذا ممكن، بالطّبع، هي كابرايا قدّامي، كابرايا من ساحلها الآخر، الذي أبدا ما رأيته، العجيب! في هيئته المتغيّرة أو المفسوخة بفعل اقترابنا منه (فقد كنّا فعلا نمرّ على مسافة من الشّاطئ لا تجاوز المائة متر)، كانت الجزيرة تتقدّم، تنفتح، تنكشف ـ شاطئ قصير، قلامة أرض، ما كنّا نتبيّن منها عدا رصيف صغير، منه تنأى طريق، بضعة بيوت هنا وهناك، هيئة قلعة منتصبة ـ، سريعا ما اختفت.

واستبدّ بي التّعاطف عندئذ. كابرايا، أنتِ تنتمين إلى هذه البقعة من الأرض، مثلنا، أنتِ يعذّبك التّناهي، أنتِ منزوعة الأسرار، تراجعي إذن، اندثري في الليل الذي يقبل. واسهري هنا، مرتبطة بي في علاقات أُخرْ، مازلتُ لا أرغب أن أعرف عنها شيئا، إذ أنّني أظلّ ملزما بالأمل، أو السراب، غدا أرى زانتي، سيفالونيا، أسماء جميلة هي أيضا وأرض أكبر يصونها عمقها. آه، كم أنّني الآن أفهم خاتمة الأوديسة، عندما اهتدى أوليس إلى إيثاكيا، ولكن عالِما بعدُ أنّ عليه مواصلة الرّحيل، وعلى كتفه مجذاف، وأنّ عليه التوغّل إلى الأمام أكثر في جبال السّاحل الآخر إلى أن يسأله أحدهم عن هذا الشّيء الغريب الذي يحمله، مبيّنا بذلك أنّه لا شيء عن البحر يعرف! عندما فكرة موطن سحيق تجتذبني أكثر ممّا تجتذبني السّواحل، موطن سحيق، محميّ بعظمة جباله مغلق كما اللاوعي. أسير قرب الماء، أنظر إلى المجاج يتحرّك، علامة تحاول أن تتشكّل، لكن دون جدوى. شجرة الزّيتون، الحرّ، الملح الذي على الجلد سيرسب، ما الذي

نرومُ أكثر ـ مع ذلك فالطّريق الحقيقيّة هي التي، هناك تبتعد، عبر ممرّات صخريّة تتضيّق أكثر فأكثر. وكلّما مضيتُ نحو الدّاخل أكثر، في إحدى بلدان المتوسّط، زادت رائحة جبس الأروقة، وزاد ضجيج المساء، وزاد حفيف شجر الرّند مبدّلا من كثافته وعلوّه (كما نقول عن صوت صار بعدُ مرتفعا) إلى حدّ أنّها تصبح، إلى درجة القلق، واضحة، برغم أنّها منغلقة، برغم أنّها صوت، برغم أنّها مستحيلة الفهم.

كذلك أيضا أنا لا أنظر أبدا إلى متاهة الهضاب الصّغيرة ـ تلك الطّرق السّهلة، لكنّ خلفيتها لا متناهية ـ في لوحة انتصار باتّيستا لبيرّو ديلاّ فرانشيسكا، دون أن أقول لنفسي: لقد كانت لهذا الرسّام هواجسه العديدة، ومن بينها هذا الذي يراودني. لكنّني أحبّ أيضا، تحت هذا التأثّر، السّهول الكبرى، حيث الأفق خفيض إلى حدّ أنّ الأشجار والأعشاب تكاد تخفيه. إذ عندئذ يمتزج اللامرئيّ بالمحاذي، الموضع الآخر في كلّ مكان، المركز على بعد خطوتين تقريبا: أنا على الطّريق من فترة طويلة، والأمر لا يتطلّب إلاّ منعطفا حتّى أكتشف الحيطان الأولى، أو حتّى أكلّم أُولى الظّلال... فعلا، البحر ملائم لأوهامي، لأنّه يضمن المسافة، ويعني أيضا، في مستوى الحواس، الامتلاء الشّاغر، ولكن بشكل لا متعيّن، وأُدرك جيّدا أنّ الصّحاري، أو شبكة الطّرقات في بعض الأصقاع، وهي أيضا صحراء، بمقدورها تأدية نفس الدّور، الذي هو السّماح بالتّيه، في تأجيل يطول للنّظرة التي تحضن الكلّ وتعدل عن ذلك.

في سراب العتَبة

١٩٧٥

النّهـــــر

كَلاّ، دائمًا
أنتَ مِن بسْط جناح المستحيلِ
صارخا، تستيقظُ
في المكان الذي إن هو إلاّ حلُم. صوتك، فجأةً
مثلما السّيلُ أجشْ
كلّ المعنى، المجتمع، يسقط داخلهُ
في ضجّة ساكنة مُلقى بها فوق الحجرْ.

وللمرّة الألف تنهضُ
في الصّيف هذا الذي يُرهقكَ.
مِن جديد هذه الضجّةُ
لفضاء خارجيّ، ينأى، ويَقترِبُ،
إلى هذا الصّراعِ الذي يرتجّ تمضي... لا ريحَ، في الخارجِ،
أشياءُ الليل جامدةٌ كما جبهةُ ماءٍ في الضّياء.

انظر

الشّجرة، حاجز المصطبةِ،

السّطح الذي يلوحُ مرسوما على الفراغ،

كُتل أُوكسيد الكوبالت المضئ في الوادي،

بالكاد تهتزّ، لعلّها انعكاسٌ لأشجارٍ أُخَرْ

على نهرٍ وأحجارٍ أُخَر.

انظر، حدّق جيّدا! لا شيء منذ الآن،

سَواء عنَى الأمرُ هذا الوهدَ، هذا البريقَ

في ذروة العاصفةِ، أو عَنى الأمر الخبزَ، والخمرَ،

فما عاد لهُ أبدا

شيء مِن سكون التنسّم الليلي

الذي كان في النّوم العتيقِ يؤالفُ بين الدّواب والأشياءِ

التي أدركها الليلُ

وبين اللامتناهي وراء حجابِ النّجوم.

انظر،

اليد التي تمسك النّهدَ،

تتذكّرُ شكلَهُ،

تُدفق منه البرودةَ العذبةَ،

اليد التي ترتفعُ

تتأمّلُ انزياحها، جهلَها، وتحترقُ
معزولةً في الصّرخة الخاويةِ.
مع ذلك فالسّماءُ، بذات العلاماتِ تأتلقُ،
لمَ المعنَى
تجمّدَ في خاصرة الدبِّ،
جرحا لا يُشفى يُجزّئُ
في نهر الكلِّ عبر الكلِّ
بخثارتهِ، كأنّه رمزٌ لموت،
الدّفقَ المتوقّدَ للحيواتِ المعتمةِ؟
تنظرُ إلى النّهر الترابيّ يَجري،
طالعًا، في ذات الليل، ومنحدِرا
برغمِ هذي الظّلال التي دون جدوى
تجمعُ الأنجم بالثّمارِ البائدة.

وتَعلمُ، الآن، أفضلَ أنّك كنتَ تحلمُ
أنّ مركبا مُحمّلا بالتّربة السّوداءِ كان يتركُ الضفّة.
والمُعِدّ بكلّ جسمه كان يضغط
على العصَا التي كانت تدعّمت، وكنتَ تجهلُ
أينَ، في طين قاع النّهرِ الذي لا اسم لهُ، كانت تدعّمت.

أيّتها الأرضُ، أيّتها الأرضُ،
لمَ اكتمالُ الثّمر، عندما المعنى
كمركبٍ بالكاد مستشعَرٌ يتوارى عن اللون والشّكل، وهذه الذكرى
التي تعصر قلب قاربِ صيفٍ آخر على سطح الأعشابِ
مِن أين تقبل؟ من أين، نعم، هذا القَدْر من البداهةِ
عبر هذا القدر مِن الألغاز، ومِن الإيمَان أيضًا، وحتّى
هذا القدر مِن الفرح المُصان؟ ولمَ الصّورةُ
التي ليست المظهرَ، ولا حتّى الرّؤية المشوّشةَ، تُلحّ في الحضور
رَغم جحود الكون؟ أيّتها القراراتُ،
إله يافعٌ كان للنّهر يعبرُ،
كان الرّاعي خلف الغبار يبتعدُ،
كان الأطفالُ في أعلى الجبل يلعبون بين أغصان الشّجرْ،
ضحكٌ، معارك مسالمة، ضجيجُ المساء،
هناك الرّوح كانت بانتظام تنفثُ...

اليومَ ليس للمُعدِّ مِن ضفّة

أخرى عدا الصّاخبةِ المعتمةِ
وبوريس دي شلويزر، حين مات على الرّصيفِ العائمِ
مُصغيا إلى ألحانٍ أقرباؤهُ لا شيء عنها يَعرفون
(هل كانت، بعدُ، نايَ الخلاص الموحى به
أم آخرَ الغلال للأرض الضّائعة،
«أثرا» مبدّلا هيئته؟) ـ ما تركَ، وراءهُ
غير هذي المياه بالألغاز محترقة.
أيتها الأرضُ،
النّجومُ الأكثر عنفا أبدا ما رَسّخت طرفَ السّماء
بنيرانٍ تضرب أكثر في الثّبات،
نداءُ الرّاعي
الأكثر إتلافا للشّجرِ
أبدًا ما دَمّر صيفا يضربُ أكثر في العتمة.

....

....

أيتها الأرضُ،
ما الذي كان تبيّنهُ، ما الذي كان يفهمهُ،

ما الذي به قبلَ؟
مطوّلا أَنصتَ،
ثمّ استقام،
ضوءُ مركبٍ
كان يبلغُ، كان يعرفُ،
أوجًا من الطّلاقِ، من التّلاقي، من الفرحِ،
أضاءَ وجههُ.

ضجّةٌ، محبوسةٌ،
للعصا تلطمُ ماء موحِلاً،
عتمةٌ
للسّلاسلِ في قاع النّهر تنسابُ.
في موقع آخر،
هُنا حيث أجهلُ كلّ شيء، حيث أكتبُ،
كلبٌ لعلّه مسمومٌ
كان يَخدشُ الأرض المُمضّةَ السّوداء.

في سراب العتَبة

قاوِمْ،
قَاوِم أبدًا.

في سراب العتَبة.

عند البوّابةِ، المقفلةِ،
عند العبارةِ، الخاويةِ.
في الحديدِ، لا يفتحُ
على غيرِ اللفظتينِ، الـ ـ حديد.

في اللغةِ، المُعتمةِ.

في هذا الذي هُنا يمثلُ
ثابتا، راعيا مائدتهُ، المحمّلةَ

بالعلاماتِ، والأضواءِ. والذي ينادونهُ

ثلاث مرّاتٍ، ولا ينهضُ.

....

في التّجمهُرِ، حيث المُحتفى بهِ
يتغيّبُ.

في القمح المتشوّهِ
والخمرِ الذي يجفّ.

في اليد التي تُمسكُ
بيدٍ غائبةٍ.
في اللاجدوى
مِن التذكّرِ.

في الكتابة، علَى عجَلٍ
في الليلِ مخزّنة

وفي الكلماتِ المنطفئة
مِن قبل أن يأتيَ السَّحَرُ.

....

في الفم الذي
مِن فمٍ آخر يرغبُ
عسلا لا صيفَ يقدرُ
أن يُنضّجهُ.

في العلامة التي،
فجأة تتكثّفُ
حتّى تُصبح، مجلديّةً،
كأنّها المضيقُ

ثمّ تصيرُ
إلحاح العلامةِ الصّامتةِ
تُشتّت تحت النّجمةِ

موجها العاري.

في انعكاس النّجومِ
على الحديد.
في قلق الأجسادِ
التي لا تلتقي.
قاومْ، حتّى آخر الوقتِ.

الشّفتان في ولعٍ حتّى
عندما الدّم ينهمرُ،

إلى أبعد حدّها اليدُ
مقاومة وأيضا عندما
السّاعدُ ما عاد إلاّ رمادا
متناثرا.

....
....

سابقا كلبهُ
يتوغّل المعدّ في الأرض السّوداء
يطلبُ الضفّة الأخرى.
مُمتلئا بالطّين فمُكَ،
عيناكَ ضائعتان،
فَلتدفعْ باتّجاهنا
في الطّين مركبكَ.
أنتَ تجهلُ
أيَّ عُمقٍ عصاكَ تُدركهُ، أيّ انحرافٍ
وما ستضيئهُ، محجوزةً بالأسودِ،
كلماتُ الكتاب،

سابقا كلبَكَ الذي
تصعبُ استعادتهُ
يلفّونكَ، أيّها المعِدُّ،
بمعطفِ العلاماتِ
يُكلّمونكَ، يُعطونكَ
رمزا أو رمزين،
خريطةً باطلة لأرض أُخرَى.

تستمعُ،
عيناكَ إلى الماء المعتّمِ بعدُ تلتفتان
تسمعُ،
بعضَ ما يملأ الرّفش يَهوي.

سابقا كلبكَ الذي
مات أمسِ
يريدون، أيّها المعدُّ،
نثرَ وميضك.
أيادي الصّبايا
أزاحت التّرابَ
مِن تحت الغصن الذي يحملُ
ذهبَ المحبّبات القادمة.
بمقدوركَ أن تتبيّنَ أيضا سواعِدهنّ
ذواتِ الظّلال الثّقيلةِ،
واكتنازَ النّهودِ تحتَ الرِّداء.
ضَحكٌ في السّماءِ
يضطرمُ لكنّك تبتعدُ.

داميا رمَوا بكَ في الضّياء،
فتحتَ عينيكَ، صارخا، لتُسمّي النّهار،
وما كاد هذا يُسمّى
حتّى ستارةُ الدّمِ قد وقعَت
في ضجّة هائلةٍ
على الضّياءِ مختنقة.
ضَحكٌ هناكَ يَضطرمُ،
يَحمرُّ في الكثافةِ التي تضمحلُّ.
خُد عن نيرانِ ضَفّتنا.

قبل النّارِ التي
لم تَشتعل جيّدا
علامةُ النّارِ، المُطلسمةُ،
قد وُضِعت
على سريرٍ من الورقِ.
وجوهٌ باتّجاهنا ملتفِتةٌ
مُفكِّكةٌ للرّموز،
أيّةُ ريحٍ مِن الجهة الأخرى، لا تُسمعُ،
تجعلها تتمتمُ؟

أيّةُ أيادٍ مُتردّدةٍ
كأنّها تكتشفُ
سَتمسكُ، ستورّقُ
ظلَّ الصّفحات؟
أيّة أيادٍ متأمّلةٍ
كأنّها وَجدت؟

....

أيّتها الغمامةُ انحني،
وهدّئي الرّوعَ
بالبسمة التي
في صورة وجهٍ وضّاءٍ تتحرّكُ.

كوني لِمن أصابهُ البردُ
قبالة الضفّةِ
ابنةَ فرعون
ووصيفاتِها،

اللواتي حيث الماءُ
مازال قبلَ طلوع النّهارِ،
مُضطربا
يعكس القماشةَ الحمراء.

....

وكأنّ يدًا على طاولةٍ
تفرز البذرة التي
تكادُ تبرزُ
في الشّيلم المُعتمِ

وعلى ماءِ الغيض الأسود السّاحرِ
انعكاسُها يَعظُمُ
حيث المعنى فجأة يتشكّلُ.

احضني،
في لسانكِ
كلماتِنا، كي تنام،

إنّ الرّياحَ بعصفها تثقبُها.

....

«لئن جئتَ تشربُ من هذه الخمرةِ،
فلن أسمحَ لكَ أن تشربها.
لئن جئتَ تتعوّدُ هذا الخبزَ
القاتمَ، المحترقَ بنارِ وعْدٍ
فلن أسمحَ لك أن تُلقي عليه الضّياء.
لئن جئتَ لا تطلبُ غير الماء
ليخمدك، قليلٌ من الماء الفاترِ، يُشربُ
منتصفَ الليل بعد شفاهٍ أُخَرْ
بين التّراب البسيطِ والمفرش المُهمَلِ،
فلن أسمحَ لك بلمس القدح.
لئن جئتَ كي يأتلقَ الطّفلُ
فوق الشُّعلِ التي
في أبديّةِ ساعةِ نيسانَ تُرسّخهُ
حيث يُمكنهُ الضّحكُ، وأنتَ، حيث يحطّ الطّيرُ
في السّاعة التي تحضنهُ والتي لا اسمَ لها،

فلن أسمحَ لك برفع يديكَ فوق الموقدِ حيث أنتشرُ ضياء.

جئتَ،
لن اسمحَ لك أن تظهر.
تسأل،
لا أسمح لك أن تعرف الإسمَ المكوَّنَ مِن شفتيك».

....

أبعدَ مِن الأحجارِ
يقتلعها العاملُ
الواقفُ على الحائطِ
آخرَ الليلِ.

أبعدَ مِن جناحِ الغراب، الذي يسمُ
بعفونتهِ الضّبابَ
ويعبرُ الحلمَ في صرخةٍ
طافحةٍ بالتّربة السّوداء.

أبعدَ مِن الصّيفِ
تُكسّرهُ المسحاة،
أبعدَ مِن الصّرخةِ
في حلم آخرَ،
يرتمي النّائبُ عنّا
ظلاً
على البدء يُسقطهُ المُرتجى،

والوحدةُ المتفرّدةُ، هذه الحركةُ
للجسد ـ عندما، فجأةً،
بكتلتهِ الملقاةِ قبالة العصا
يُهملنا.

....

نحنُ، الصّوت الذي
تكبُتهُ ريح الكلمات
نحنُ، المنجزُ الذي
إعصارُ الكلمات يُمزّقهُ.

إذ كلّما أقبلتُ نحوكَ،
يا مَن تكلّمتَ، حصًى، وانهمارًا، وصدًى،
كانت الغرفةُ خاويةً.
أهو «آخرُ» هذا النّداءُ الذي
يُجيبني، أم أنّهُ صَوتيَ أيضًا؟
وتحتَ قُبّة الصّدى، مُتعدّدا هل أكونُ
إلاّ واحدًا مِن سهامهِ المرسلةِ
إلى الأشياء؟

نَحنُ
بَين الأصواتِ
نَحنُ
إحداها.

مُنفصلاً
عن السّطح الذي يَنهدُّ
يَتجوّفُ، يتّسعُ
مِن ذاتهِ يَفرغُ
يَتأرجنُ،

ويُترَعُ بامتلاءِ قصِي.

....

انظر هذا السّيلَ،

في الصّيف اليبابِ صارخا يرتمي،

مع ذلك فهو ثابتٌ،

المَقرَنُ حرونٌ والوجهُ أعمَى.

انصتْ.

ليسَ الصّدى حول الصّوتِ لكنهُ

في الصّوت كما لُجّتُهُ.

جُروف الضّجيج،

والقِمعُ حيث مياهه تتحطّمُ،

وكاسراتُ الحجرِ،

تتملّصُ من عينيكَ

في صرخةِ نسرٍ أخيرة.

لن تقدرَ على سماع صوتِ صدر الماءِ حيث يَرتطمُ،

فاترُك الجناحَ المزمجرَ،

عينا مبهورةً، يحملكَ.

نَحنُ
في مَركبة الضّجيجِ
نَحنُ
مَحمولون.

نَحنُ، أجلْ، عندما السّيلُ
بيدينِ محطّمتينِ
يرمي، يُدحرجُ، يستردُّ
مطلقَ الأحجار.

الجارحُ
في أوج تحليقهِ
صارخا
علَى ذاتهِ يَنثني ثمّ، يَتمزّقُ.
مِن صدرهِ المفلوحِ بمنقارهِ القاتمِ
يَنبجسُ الفراغ.
مَازالَ الضّجيجُ في ذروة الكلمةِ،
وفي المنجزِ
هياجُ صخبٍ آخر.

لكن في ذروة الصّخبِ يتبدّلُ الضّياء.

....

كلُّ المرئيّ المُقعدِ
يتفسّخُ، جمرًا
حيث نداءٌ يعبرُ
غاباتٍ أُخَرْ.

وإذا الصّاعقةُ
في سُكون على الشّجرِ، نهدًا
حيثُ في حُلمٍ
يتحرّك نومٌ وموتٌ،

وليلُ الأرضِ، ضياءً، يَشتعلُ
كما في الماء الأسودِ
قماشةٌ مُلوّنةٌ تَنبسطُ

عِندمَا الصّورةُ
تَشطرُ المدَّ فجأةً،

وعندما النّارُ
تعصفُ بالعصاة.

....

أيّتُها السّاعةُ المجتزَأة
مِن النّعاسِ الآن.
أيّها الحضورُ المختطَفُ
في غفلة من الموتِ. أيّها المصباحُ
الذي يَركع في صمتٍ
ويَحترقُ
زائغا، مهزوزا
بالليل لا أوجَ لهُ.

أسمعكِ
تَهتزّينَ في اللاّمُنجزِ
الذي في الأرض يَشقى
أدركُ
مراوحةَ النّداءاتِ

حيث الانتجاعُ
هو المصباحُ الذي يحترقُ.
حفناتِ أُمسك بالتّراب
في هذا المتّسعِ ذي السّطوحُ الملساءِ
حيث لا عمقَ قبل النّهار.
أسمعكِ، أحملُ
في سلّتكِ المفتولة
كلّ التّراب. في الفضاء الخارجي
مازال وقتُ الألمِ
يسبقُ الصّورة.
في اليدِ الممدودة مِن هناك، المُغلقةِ،
قمحُ أشياءِ الأرض
في الطّلوع قد شرعَ.

....

الملاّحُ
الذي بعصاه، المتأمّلةِ،
يلمسُ كتفكَ
وأنتَ الذي صار الليلُ يستركَ

حين عصاك تفتّشُ
في قاعِ النّهرِ بلا جدوى،

مَن ذا الذي يُوجدُ، مَن ذا الذي سيتوهُ
مَن ذا الذي يقدرُ أن يأملَ، أن يعِدَ؟
أيّها المنحني على الماء انظر
وجها بكامله يَبينُ

كَما لَهبٌ
في ظلٍّ كَتفكَ يَضطرمُ.

النّارُ، أفراحُها من النّسغ الممزّق.
المطرُ، أوْ لا شيء على القرميد إلاّ الرّيح رُبّما.
تبحثُ عن معطفكَ القديم.
تأخذُ المفاتيحَ، تخرجُ، نجم يُضيء.

ابتعدْ
وسطَ الكرومِ، نحو راعياتِ البقر.
ستكونُ السّماءُ
عند الفجرِ أكثرَ عجَلة.

دائرةٌ
حيث تُرعدُ اللامبالاة.
ضياءٌ
مكان الإله.

انظر، كأنّها النّارُ

في دلوِ ماء المطرِ الليلي.

....

في الحلمِ، مع ذلك،
في النّارِ الغامضةِ الأخرى
التي عاودتِ الاشتعال،
خادمةٌ تحملُ قنديلا كانت
بعيدا تسيرُ قدّامنا. مُحمرّا كان الضّياء
ومن طيّاتِ الفستان فوق السّاقِ
ينسابُ حتّى الثّلج.

أنجمٌ، منتشرةٌ.
السّماءُ، سريرٌ مُهمَلٌ، ولادةٌ.

وشجرةُ اللوز، مُتضخّمةٌ
بعد عامين: سيلُ الماءِ
في ذراعٍ أكثر ظلمةً للنّهر ذاتُهُ.

....

يا شجرةَ اللوزِ المزهرةِ،
يا ليلي الذي لا نِهايةَ له،
اطمئن، أيّها الطّفل، استند
إلى هذه الصّاعقة.
يا غصنًا هُنا، بالغياب مُضطرما، اشربْ
مِن أزهاركَ العابرةِ للسّماءِ المتبدّلة.

....

خرجتُ
إلى كون آخر. كان ذلكَ
قبلَ طلوع النّهار.
نَثرتُ الملح فوقَ الثّلج.

ما كان بلا ضياء

١٩٨٧

الأشجار

كنّا نُطلّ على أشجارِنا
مِن أعلى المصطبة الأثيرة عندنا،
كانتِ الشّمس تمكثُ قربنا، هذه المرّة أيضا
ولكن غائرةً، ضيفا صموتا
على عتبة البيت المنهارِ، الذي كنّا
لسلطانها نَتركهُ، شاسعا، وَضّاء.

انظري، كنتُ أقولُ لكِ، إنّها
إلى الحجارةِ اللامتساوية، الغامضة، التي إليها نستندُ، تسرّبُ
ظلَّ أكتافنا المرتبكة،
وظلّ أشجارِ اللوز القريبة منّا
وحتّى ظلّ أعلى الحائط المُشبكِ بالأُخَرْ،
ظلالُ الثّغرةِ، والمركبِ المحترق، والجؤجؤِ الذي
يحيد كما فائضُ حلمٍ أو مزيدٌ من الدّخان.

لكنّ أشجارَ السّنديانِ هناك ثابتةٌ،
حتّى ظلالُها لا تتحرّكُ، في الضّياء،
هي ضفافُ الوقتِ ينسابُ هنا حيث نوجدُ
وأرضُها منيعةٌ، مِن فرط العجَلة
في تيّار أملِ الموت المُريع.

رَنونا إلى الأشجار ساعة كاملةً.
كانتِ الشّمس تنتظرُ، بين الحجارة،
ثمّ كان التّعاطفُ، بسطتْ نَحوها،
في مستوى مِن الواديّ مُنخفضٍ،
ظلالنَا التي بَدت تُدركها كما،
مُقدّمين الذّراعاتِ، بإمكاننا أحيانا،
في المسافة بين موجودين، أن نلمسَ
لحظةً مِن حلمِ الآخرِ الذي، بلا غايةٍ يَمضي.

الوداع

عُدنا إلى مَنشئنا
كان مُقامُ البداهة، لكنّها الممزّقةُ.
كانت النّوافذُ تمزج الكثير مِن الأضواء،
والدّرجاتُ كانت تتسلّقُ عديد النّجومِ التي
هي عُقد جسورٍ تنهارُ، أنقاضٌ، والنّار كانت تلوحُ
في برّ آخرَ مشتعلة.

والآن أطيارٌ تُحلّق بين الغرفِ،
المصاريعُ انهارت، السّريرُ مُغطّى بالحجَرْ،
المدفأةُ معبّأة بأنقاض القبابِ التي ستنطفئُ.
هُنا، عند المساءِ، كنّا نتسامرُ
أصواتُنا بالكاد تُسمعُ، ضجيجُ القباب يُخفيها،
مع ذلك، فهنا، كنّا نُشكّل ما نَنتوي:
لكنّ مركبًا محمّلا بالحجارة الحمراءِ

مُرغمًا عن الضفّة كان يبتعدُ، والنّسيانُ
كان ألقى برمادهِ فوق الرّؤى
التي عن تجديدها كنّا لا ننقطعُ،
مالئين بالصّور النّارَ التي ظلّت إلى آخرِ يوم مُوقدة.

فيا صاحبتي،
أحقًا أنّه لا توجدُ في اللغة التي نَدعوها شِعرًا
إلاّ لفظة واحدةٌ
لقول شمسِ النّهارِ وشمس المساء،
واحدة لصرخة الفرحِ وصرخة الكدرِ،
واحدة للقمّة الجرداءِ ودقّات الفؤوس،
واحدة للفراش غير المرتّب وسماء الأعاصيرِ،
واحدة للطّفل الذي يولدُ والإله الميّتُ؟

بلَى، أصدّقُ ذلك، أريدُ أن أصدّق ذلك، لكن
ما هذه الظّلالُ التي احتلّت المرآة؟
وانظري، العوسجُ يُولد وسط الحجرْ
على الطّريق مِن العشب بعدُ ما عُبّدت

حيث تَمضي خُطانا إلى صغيرات الشّجرْ.
يتهيّأ ليَ الآن، هنا، أنّ الكلام حوضٌ إلى نصفه قد تكسّرَ،
حيث في كلّ فجر ممطرٍ بلا جدوى يفيض.

العشبُ وفي العشب يُضيءُ الماء، كما نهرٌ.
كلّ ما في الأرض دوما يُرتقُ من جديد
الفردوس مشتّت، أعلمُ، واجب دنيوي
أن نتعرّف ضِمنهُ
على الزّهر المبعثرِ في العشب الهزيلِ، لكنّ الملاك اختفى،
فجأة صار الضّياء شمسا غاربة.

وكما آدمُ وحوّاءُ سنمشي
في الحديقة آخر مرّة.
كما آدمُ النّدمُ الأوّلُ، كما حوّاءُ الشّجاعةُ الأولَى
نُريد ولا نريد تجاوزَ الباب الخفيضِ
الذي ينفرجُ هناكَ، في الطّرف الآخرِ للرّسن،
الملوّنِ كما في عِرافة بإشعاع أخير.
هل يتجمّد القادمُ في البدء كما
بالمرايا المقوّسة ترضى السّماء،

هل نقدرُ أن نجتني
مِن هذا الضّياء الذي كان معجزة الهُنا
بذورا نُخبّئها لغدران أُخَرْ
خلفَ حجاب حقول أُخر «مسدودة بالحجر»؟

يقينا، مُقامُ انتصارنا، مُقام الانتصار علينا، هُنا
حيث نرتحلُ، هذا المساء. هُنا
بلا نهاية كما هذي المياه التي من الحوض تُفلتُ.

المرآة المقوّسة

I

هاهمُ عند ذاك المفترق،
الذين على تردّدٍ يَبدون، ثمّ يواصلون المُضي.
قدّامهُم يركض الطّفلُ، لقد قطفوا
في أحضانٍ كبيرة لبضعة أوانٍ هذه الأزهار
مِن وسط الحقول التي ليس لها اسمٌ.

والملاك مِن فوقٍ يراقبهُم
ملتفًا بعصف أصواتهِ.
إحدى ذراعيه في الرّداء الأحمر عاريةٌ
كأنّها تحملُ مرآة، وكأنّ الأرضَ تنعكسُ
في ماء هذه الضفّةِ الأُخرى.

وما الذي يشير إليه الآن، بإصبعهِ
الذي إلى موقع في الصّورة يتّجهُ؟
بيتٌ آخرُ، أرض أخرى، أم هو بابٌ
في الضّياء الآن مُمتزجٌ بالعلامات والأشياء؟

II

هكذا يحبّذون العودة آخر الوقتِ.
حتّى الطّريقُ وسط الحجر،
حيث مازال ظلُّ مُغرة حمراء ينبجسُ، ما عادت لهُم واضحةً،
مع ذلك لا يتردّدون. قرب الوصيد
العشبُ سلسٌ، إطلاقا ميّتا ما عاد.

وها همُ الآن تحت القباب.
ها هي الآن تُعتمُ
في حفيف الأوراق اليابسة التي تدفعها
على البلاط من غرفة إلى غرفة
الرّيحُ التي تجهلُ ما لهُ اسم وما ليس أكثر من مجرّد شيء.

يَمضون، يَمضون.
هناك وسط الخرائب، إنّه الموطنُ
حيثُ الضّفافُ هادئة، والطّرقات ثابتةٌ.
سيضعون أزهارا في الغرفِ، بجانب المرآةِ
التي لعلّها تُتلفها، ولعلّها تُنقذها من التّلفِ.

حجارة

عنيفًا مرّ الصّيف بالغرف الرّطبةِ،
عيناهُ كانتا لا تبصرانِ، جناحهُ عارٍ،
صرخَ، والنّداء بلبل أحلامَ الذين كانوا هُنا
في عاديات نهاراتهِم يَنعسون.

يَرتجفون، نَظمُ أنفاسِهُمُ تَبدّل،
أيديهمُ ارتاحت لسلطان النّعاس.
كانتِ السّماء على الأرض تُقبل مِن جديد،
وكانت أَعاصيرُ مساءاتِ الصّيف الأبديّة.

من حيث الأرض تنتهي

I

لأنّ طائر المينيرفَا عند هبوط الليل يشرع في التّحليق، فقد حان وقت الحديث عنكِ، أيّتها الطّرقات التي على هذه الأرض المنكوبة تنتصرُ.

كُنتِ البداهة، ما عدتِ غير اللغزِ. كنتِ في الأبدية تحفرين الوقت، ما عدتِ الآن سوى الماضي، مِن حيث الأرض تنتهي، هنا، قدّامنا، كما حدُّ حرفٍ وعِرٍ.

II

ظلُّ ورقةٍ أو زهرة على حجارة يسقطُ. كنّا إلى جانبه نجلسُ، نلتقي كنّا: رسّاما صينيّا وبضعة ألوان لمزجها بالمداد الأسودِ.

كان اللامتناهي الذي يتحوّل إلى المتناهي كما في فضاء الدّواب. من كان يرحلُ كان يعرف أن يعود. سعيد هو الوقت حيث، عندما كانت طريق تتيهُ، كنّا نعلمَ أنّ ذلك كان لأنّهُ، مِن هذا الجانب لانتهاء الأرض، لا يوجد ما يُسبّب المضيّ أبعدْ.

III

مَثيلَ من كان على خُطى الجدول القريب منه يسيرُ، وكان يقترنُ به في نقاط كنّا نجهلُ، إلاّ نادرا، إذا كانت معابرَ أو غدائرَ في الإشعاع المحطّم للذّباب الصّغير واليعسوب.

مَثيلَ من كان تسلّق منحدرًا بين الصّنوبر والسّنديانِ الصّغير ثمّ كان جهرا يُطلّ على سديم بأكمله من الأكمات المححَّرةِ، بعضها حتّى المدى مسدودةٌ بصفوفٍ من الحجر العاري.

وهذا الآخر هناك، ـ كنّا نحلم أنّه بحيرة سندركها، ربّما كان في الأعشاب المهملة، المتهيّئة ماءً، مركبٌ ملوّن أزرقُ.

IV

مَثيلَ من كان ينسلُّ كما حنشٌ تحت أوراق حولٍ آخر.

مِن لحظة، ما كان. بعد آونة، لعلّه لن يكون.

V

مَثيلَ من كان يحثّ الخطَى، يتبعنا. كنّا نشرع في رغبة منحه اسما.

بصداقة الطّفلة كان قد أُخذ، بأعوامها الثّمانية هذه السّنة، وكان حولَها لا يكفّ عن الوثب فوق الكلأ المبلّلِ، ولا يكفّ عن النّباح.

طوالَ النّهار كان مرّاتٍ ينام، في طيّة الظلّ أنفُهُ.

VI

بوذيّون دون أن يَعلموا.

ما كانوا يرونه «منهجا». كانوا يتركون ذلك إلى معرفتنا الرّوحيّةِ.

يحاولون، يا للسّخرية، أن يستوقفوا السّائحَ.

جميلةٌ عنهمُ الصّورة هؤلاء اليابانيّون الصّغار الذين نراهم نَواحي القُرى، تماثيلٌ فَضّةٌ من الحجارة الدّهماءِ لها قماشاتٌ مشدودة إلى الأعناق أمام القرابين قليلة العددِ، كما لو أنّهم أطفالٌ يتهيّئون لأكل بيضهم الرّائبِ. مُصلاّهم، عندنا: هذي الزّوايا حيث الحواجزُ المشبكة الصّدئة ما عادت تنغلقُ، حيث ندرك في الممرّ قليل الرّطوبةِ، التدلّهَ العطر للأزهار التي في الأوراق مُندمجة.

VII

مثالُ ذلك، عابرين أمام المقابر القديمة التي أبوابُها ظلّت مقفلة بعروة من سلك الحديد لا شكلَ لها، عارضين حلّها، بأناة، والدّخولَ، وقراءة بعض الأسماء، على الأحجار المغطّاة بالعشب، والعودة بلا قلق أو عجَلة.

ثمّ مواصلة السّير حتّى الرّبوة حيث قديما كانت القريةُ، التي يُذكِّر بها في الصّخر بعضُ الرّكام وسط العوسج، والتقدّم، بحذر، نحو النّبع الذي منه نشرب على الواديين حيث الأضواء مختلفة. «لاحظ، قال مهندس الطّرقات، تلك العزبة هناك، التي لم يبق منها عدا الأسوار بلا سقوف، العاكسة لظلال جدّ سوداء. تبيّنْ كي تنسَى».

VIII

وأين كان يمضي، هذا الآخر أيضا، بلا غبطة، دون بهاء، كنّا في الوحل نتعثّرُ، كنّا في الضّباب نتيهُ، ولكن لننتهي، من جمّتَيْ سماء متقاربتين عند موقد المرتفع الذي يخمدُ كان ينبجس شعاعٌ شمسُ المساء.

(غير أنّه لا توجد طرقات للنّزول عند الأموات، برغم ما قاله راسين. فيما يتعلّق بالأرواح، هي ذي البذرة تنطلقُ، هو ذا دليل البتولِ، هو ذا صغير الذّبابِ. إنّ الدّخول إلى موطن الأموات يتمّ كما ورد في الأسطورة السّلتية، عبرَ طريق مستقيمة، محاطةٍ بالمضائف المفتوحة كامل الليلِ. طريق كالتي يتوجّب اتّخاذها، حين فجأة تكون أكثر اتّساعا وأسهل قطعا، كلّما اقتربنا مِن تُخمٍ.)

IX

رَجلٌ كان يحملُ قدحا، منه كان يُشعّ نبيذ السّماء الصّافية.

رَجلٌ كان يمضي، كأن نقول، عبر النّهر إلى عمق الغاب.
رجلٌ كان مَجرّتنا.

وكان هناك أيضا رجل أكثر سخاء، وكان يحبّ استضافة ظلالنا فوق رملِهِ، الذي كان أملسَ. ظلالُنا كانت بعيدًا تركض قدّامنا إذ أنّ الوقت كان مساءً، وكنّا نُحسّ بها كئيبة مضطربة. غير أنّ ظلّ طيرٍ أحيانا كان يُدركها، وللحظة يُصاحبها، قبل أن يبتعد عنها بقصمةٍ مِن مجذافه مباغتة.

X

أيّتها الطّرقاتُ، كلاّ
لا شيء في ضوضائكِ ينتهي.
أنتِ طفلٌ على نايه يعزفُ، أصابعهُ
بأقلّ ما يوجدُ في ثقة تُعيد خلق العالمِ
بالقليلِ مِن التّراب حيث الأنفسُ تُستعاد.

والوقتُ قد وضعَ
يَده على كتفهِ، وضريرا قد استسلمَ
لقيادتهِ تحت قبّة الأعداد المحضةِ.

دِيدام منظورًا إليها مِن لِنغام

دِيدامُ، مَنظورًا إليها مِن لنغام. الصّيفُ مُعتمٌ
حيث السّحبُ تَتجمّعُ. يَجوزُ لنا الاعتقادُ
أنّ كلَّ هذا، أسيجةٌ، وقُرى نائيةٌ،
ونَهرٌ، سينتهي. أنّ الأرضَ ما عادت
حتّى ردحَ البهيمة والشّجرِ، وأنّ صوتَ الأجراسِ،
هذا الذي يَرحلُ
عن بُرج هذي الكنيسة،
مُجرّدُ صوتٍ بين أصواتِ الأرض يَندثرُ،
كذلكَ يرحلُ الأملُ
الذي يحصُلُ أحيانا لنا
عند إدراكنا علاماتٍ على حجرٍ
ما أن نَتبيّنَ أفضلَ هذي الخطوطَ المضطربةَ،
هذي البُقعَ، هذي الارتعاشاتِ للشّيء العاري.

لكنّكَ عرفتَ أن تَقرن لونَكَ
بنوعٍ مِن الرّملِ الذي
مِن السّماءِ يَقتبلُ الوميضَ في المادّةِ.
هُناك حيث الصّدفةُ التي كانت تتكلّمُ
في انهيار الصّخرِ، في السُّحبِ،
هزمتَ، بمطلع مُوسيقى،
الشّكلَ الذي في كلِّ حياةٍ على ذاتهِ يَنغلقُ.

إلى صوتِ النّحْلِ في الأشياء الواضحة تُنصتُ،
أحيانا إلى تَضخّمهِ، هذا المطلق
الذي في المرج بين الظّلالِ يَهتزُّ،
الذي تَتركهُ يعيشُ داخلكَ، وتَتخفّفُ
لكونكَ ما عُدتَ، بذلك، لا خوفًا ولا عجلَة.

أيُّها الرَسّامُ،
كما يدٌ على عُنقودٍ تَضغطُ، يدٌ ربّانيةٌ،
الخمرُ رَهنُكَ، رَهنُكَ ألاّ يكون الضّياءُ هذا المخلب
الذي يُمزّقُ كلَّ شكلٍ، كلَّ رجاء،
ولكن فرحا يكون في أقداحِ يوم العيد حتّى قاتمة.

بفضلكَ، أيُّها الرّاسمُ للمشاهد الطّبيعيةِ،
السّماءُ فوق الأرض توقّفتْ
كما الملاكُ فوق هَاجِرَ عندما كانت تسيرُ،
والقلبُ خاوٍ، في متاهةِ الحجرِ.

وكم مِن الامتلاء في صوت الجدولِ
الذي جَمَّع همسَ الأجراسِ في العُشب،
ترغبُ حين، وكمْ
مِن الخلود في أريج الزّهرةِ الأبسطِ ذاتَهُ يَهبُ!
كما لَو أنّ الأرضَ كانت
شديدةَ الرّغبةِ في ما بهِ الرّوحُ تَحلُمُ.

والصَّبيةُ التي في الحُلمِ تُقبلُ
للعبِ في مَرج لِنغام،
ومِن بُعدٍ، إلى دِيدامَ أحيانا تَنظرُ،
وتَتساءلُ إذا لم يكنِ العيشُ هُنا أفضلَ،
وبلا سببٍ، تَقطفُ الزّهرةَ التي تَشتمّها
ثمّ تُلقي بها وتنساها، ولكن لا شيءَ يَهرمُ
في الصّيف الأبدي

لا مياهُ هذي الحياةِ ولا مياهُ هذا الموت.

أيّها الرَسّامُ،
وَثِقتُ فيكَ مُذ قد عَرفتُكَ
عبثا حلمتَ، لكنّ عينيكَ مَفتوحتانِ
وحتّى عندما في الصّورة بفكركَ قد تُخاطرُ
كما في الماء نَغمسُ اليدَ، فإنّكَ تأخذُ ثمرةَ اللونِ،

ثمرةَ الشّكلِ المحطّمِ، وتَجعلُها
في الأشياءِ الملفوظةِ حقيقةً.

أيُّها الرَسّامُ،
أُجلُّ نهاراتكَ، التي إن هيَ
إلاّ الواجبُ الأرضيُّ، وقد تَخلّصَ
من التسرّع الذي يُعميه. لا شيء إلاّ الطّريقُ لكنّها
أكثرَ بُطأً هُناك في الرُّغام.
لا شيء إلاّ القمّةُ
قمّةُ جبالِ الهُنا لكنّها المتحرّرةُ، لآنٍ، من المكان. لا شيء
إلاّ أزرقُ الماءِ المغترَفِ مِن البئرِ في أخضرِ العشبِ

ولكن للقرانِ، للتحوّلِ ولكي تطلع نَبتةُ عالمٍ آخرَ، نخيلاً،
عناقيدَ ثمارٍ مازالت تُلاصقُ بَعضها
في تآلفِ نَغمتينِ، هي حياتُنا الوحيدة.
تَرسمُ، إنّها الخامسةُ
في أبدِ نَهار الصّيف. وشُعلةٌ مُتحوّلةٌ كانت
عبرَ العالَم تَضطرمُ، عن الأشياءِ والأحلام تَنفصلُ. كأنّما
لَم يبقَ إلاّ بخارٌ على سطحِ زُجاج النافذة.

أيّها الرَسّامُ،
نَجمُ لوحاتكَ
هُو نَجمُ اللامتناهي بلا جدوى يُعمّرُ الأكوان.
علاوةً على أنّه يُهدي الأشياءَ
إلى موقعها الحقيقي، ويَلفُّ هنا أظهُرَها بالضّياء،
وفيما بعدُ حين يَدٌ
مِن الخارج تُمزّقُ الصّورةَ،
وتُبقّعُ بالدّم الصّورةَ،
فالنّجمُ يَعرف تجميعَ رسْلِ الأشياء الفزعِ
للمراوحة ليلاً، على أرضٍ جرداء.

ومرّاتٍ
في مرآةِ السّاعةِ الأخيرةِ الغائمةِ،
يَعرفُ، قيلَ، كما يدٌ تمسحُ
زُجاجَ نافذةٍ تَألّقَ فيها المطرُ، كيف يُحرّرُ
بعضَ علاماتٍ بسيطةٍ، بعضَ رموزٍ تُضيءُ
أبعدَ مِن الكلماتِ، مُطلسمةً في ثبات الذّكرى.
أشكالٌ مُعادٌ رَسمُها، مُعادٌ تَلوينُها
عند الأفقِ الذي يُغلقُ اللغةَ. فكَأنّمَا الصّاعقةُ
التي كانت تَسقطُ أوقفتْ، في ذات الآنِ، الأبديّ تقريبا،
حركةَ سيفها المجرّدِ، وكَأنّها
مُندهشةً، كانت تَكتشفُ بلدَ الصّبَا ثانيةً،
عابرةً طُرقاتهِ، ومَهمومةً كانت تَلمسُ الأشياء المُهملةَ،
الملابسَ في الخزاناتِ القديمةِ، بعضَ اللُّعبِ المُلغِزةِ،
لُعبِ حبورها الربّانيّ الأوّلِ، أمّا الموتُ،
فيفكّكُ الوقتَ الذي في العالم يَمضي،
ويُشيرُ إلى الجدار المُضاءِ بالغروب،
ويقودُ إلى نواحي البيتِ نحو العريشِ
ليُهدي، أيّتُها السّعادةُ هُنا، في الوقت الوجيز،
الثّمارَ، والأصواتَ، والظّلالَ، والضّوضاء،
والخمرةَ الرّقيقةَ التي لا تُوجدُ إلاّ في الضِّياء.

أوّل الثّلج ثمّ آخره

١٩٩١

الثّلج الهائلُ

ثَلجٌ أوّلُ باكرا ينزلُ هذا الصّباح.
الأمغرُ، والأخضرُ، يختبئان تحت الشّجرِ.

ثَلج ثانٍ، عند منتصف النّهار.
مِن اللون ما ظلّت سوى إبرُ الصّنوبر
التي هي أيضا تنزلُ
غزيرةً وأكثر من الثّلج أحيانا.

ثُمّ، عند اقتراب المساء،
الضّياءُ ذراعه تتجمّدُ.
الظّلالُ والأحلام لهما نفس الثّقلْ.

قليلٌ من الرّيح
بطرف القدم كلمةٌ خارج الأرض. قد رُسِمت.

المـرآة

أمسِ أيضا
الثّلوج كانت تعبرُ
إلى قاع الغرفة المعتمِ.
أمّا الآن فالمرآة خاويةٌ.

ثلجٌ ينزلُ
عن السّماء ينفكُّ.

الحديقـة

إنّها تُثلجُ
تحت النّدائفِ
يَفتحُ البابُ أخيرًا على الحديقة
أكثر ممّا على الأرض يفتحُ.

أتقدّمُ. لكنّ الكوفية في رقبتي
تَعْلَقُ بالحديد الصّدئ، وفي داخلي
تمزّقت قماشة الحلمِ.

الكلّ، اللاشيء

I

هُو آخرُ ثلج الموسمِ،
ثَلج الرّبيع، الأكثر حذقا
في رتق شقوق الحطبِ الميّتِ
قبل نقلهِ ثمّ إحراقهِ.

هُو أوّلُ ثلج في حياتكَ
بما أنّهُ، حتّى البارحة، ما كان إلاّ بُقعًا
مُلوّنةً، مُتعا خاطفة، مخاوفَ، أحزانا متقلّبةً،
لحْنا في الكلام.

ويَتّضحُ ليَ أنّ الفرح يتقدّم الخوفَ
في عينيكِ اللتين مفاجأةٌ تفتحهما سلَفا،

بوثبة هائلة مضيئةٍ: هذه الصّرخةُ، هذا الضّحكُ
الذي أُحبّهُ، والذي أجدهُ يصلح للتأمّلِ.

فنحن جدُّ أقارب
والطّفلُ سليلُ مَن قد حملَهْ
بين يديه الرّائدتين ذات صباحِ
وفي انحناء الضّياء قد رفعَهْ.

II

نَعم، للاستماع، نعم، لجعلِها خاصّتي
هذه العينُ، صرخة الفرحِ،
التي فوّارةً بين أحجارِ الحياة تنبجسُ
باكرا، وقويّة جدّا، ثمّ تَهِنُ وتضلُّ.

لكنّ كتبَ ليست مَلَك، وليست كَانَ،
إذ أنّ اختلاجَ الفرح فيها
ليس أكثرَ من ظلٍّ، مهما كان وُضوحي بين الكلماتِ
التي بقيت تتذكّرُ

عديدَ الأشياء التي
عنيفا بأظفارهِ الوقتُ خدّدها،
ـ وإذن لا أقدرُ إلاّ أن أقول لكِ
ما لا أكونُهُ، ما عدا في الرّغبةِ.

نهجٌ في التّناوُلِ، قد يَكونُ
أن يكفّ المرءُ عن كونه ذاته في فعل التّناوُل،

طريقة في القول، لا تجعلهُ
غريبًا، ربّما، في اللغةِ.

III

ليكُن لكَ الثّلجُ العظيم الكلَّ، واللاشيء،
أيُّها الطّفلُ الذي خطواتُهُ الأُولَى
تترنّحُ في الكلأ، وعيناه بالبدء ملآنتان
ويداهُ لا تتشبّثانِ إلاّ بالضّياء.

ولتكن لكَ هذه الأغصانُ التي تُضيءُ الكلامَ
الذي وجب عليك سماعهُ لكن دون أن تفقهَ المعنَى
مِن مقتطعاتهِ فوق السّماء، وإلاّ
فلن تعيّن البائعَ إلاّ مِن سعرِ الخسارة.

ولتكْفكَ العلامتان، إحداهما برّاقةٌ،
مِن التلِّ في حزٍّ الشّجر،
نحلةُ الحياة، حين ستنضبُ
في حلمك بالأرض هذه الأرض ذاتُها.

وليُبدِ لك الماء الذي في المرْج ينسابُ
أنّ بمقدور الفرح مقاومةُ الحلم حين النّسمةُ

التي نجهلُ مِن أين قادمة هيَ
تُبدّد زهرَ اللوز، برغم الثّلج الآخرِ.

هناك حيث السّهم يقع

١٩٩١

I

ضَائعٌ، على مسافة خطواتٍ من البيت، بل لا أبعدَ مِن مرمى حجرْ.

هُنا، حيث السّهمُ المرميُّ به دون تبصّرٍ مرّة أخرى يقعُ.

ضَائعٌ، لا شيء يدعو إلى الهلَع. سيجدونني. أصواتٌ مِن كلّ ناحية في الليل الذي يقبلُ، سترتفعُ.

وما جاوز الوقتُ بعدُ الرّابعةَ، وإذن مازال هناك الكثيرُ من الضّياء لمواصلة الضّياع ـ ذاهبا، راكضا أحيانا، عائدا ـ بين هذه الأحجار المحطّمةِ وهذا السّنديانِ الأدهمِ في الغاب المقطوعِ بالأوهادِ، الباحثِ في كلّ مكان عن اللاامتناهي، تحت الأُفقِ الصّاخبِ، لكنّه الآن، أمام الخطوة، يَتضيّقُ.

علَى طريقٍ سأعثرُ لا محالة.

هُريًا منهارا سأرى، في جلاء منه يبدأ مَسربٌ.

هل أشرعُ في النّداء؟ لا، ليس بعدُ.

II

مع ذلك، ضائعٌ. إذ أنّ عليه، تقريبا في كلّ لحظة، أن يُقرّر، وها هو عن ذلك عاجزٌ. لا شيء يكلّمهُ، لا شيء ظلّ علامةً لهُ. فكرةُ العلامة ذاتُها تتبدّدُ. في العلامة التي تركها الكلامُ على ما يوجدُ، ماءُ المظهر المهجورِ ثانية عَلا، وحيدا يتألّقُ.

كلُّ كلمة: شيء ما هو الآن منغلقٌ، مساحةٌ كامدة لا شيء فيها يهتزّ، حجارةٌ.

قادرٌ على تلفّظها، بإمكانه أن يقول: السّنديانْ.

غيرَ أنّهُ حين قال السّنديان ـ لمَ قالها عاليًا؟ ـ ظلّت اللفظة في ذهنهِ، كَما يظلّ المفتاح الذي لم يُخلخلِ البابَ ثقيلا في اليدِ. وهيئة الشّجرة تنفلقُ، تتفتّتُ، وفي المطلق عاليا تَتجمّعُ. كما حين إلى هذه التّحديباتِ في زجاج النّوافذ العتيقة نَنظرُ.

اللونُ، مردودٌ إلى حافّة الصّورة بفعل الانتفاخ في الزّجاج. هو ما ندعوه بمخرّماتِ نتوءٍ ـ مُفنَّدٍ. كما لو أنّ اليدَ التي تضغط على الألوان والأشكال قد انفتحت.

III

ضائعٌ، والأشياءُ من كلّ صوب إليه تهرعُ، وحولَهُ تربضُ. ما عاد هناك مكان آخر في هذه اللحظة حيث هو بحدّة في الموضع الآخر يرغبُ.

فهل هو يرغبهُ؟

وشيء من قلب الأشياء ذاتهِ يهرعُ.
ما عاد يُوجد حيّزٌ بين أقلّ شيء وبينهُ.

وحدهُ الجبلُ هناك، الزّرقمُ، يساعده الآن على التنفّس في ماءِ ما هو موجودٌ، ما يعلُو.

مع أنّها مألوفة هذه الأمارة عن ضغط يُسلَّط عليه من داخل الكلِّ. بالأمس، كم من الطّرقات، كانت شديدة التحذّرِ باتّجاه نقطة الاستهراب، في مِداد السُّحب المنتشرِ! كم مِن الكلمات التي كانت تُقبلُ، مِن حيث كان لا يعلمُ، بين الكلمات! وكم من بين لُعبه، فجأة، اختفت الضامّة الصّغيرة أو المكعبات المغطّاة

بالصّورِ وناب عنها الغابُ المُنهَك بالضفّة، الليفيّة التي للو..
تخترقُ.

كانُوا يُنادونهُ مِن بعيد: تعال، وما كان ليسمع إلاّ دفق ه..
الصّوت، الذي على البلاطاتِ يَنتشرُ.

IV

هُو يذكرُ أنّ طائرا كان مشى قدّامه وقتا بأكمله حين الطّريقُ كانت بعدُ موجودة. لكن ها هو الماء الذي يتحرّك بين الأَرومات يعطّلهُ. يوجد وحلٌ في هذا النّميرِ، نوعٌ من الغبار الدّاكن حول ذاته يدورُ هنا، حيث التيّارُ الذي بالكاد يُدرَك يلطمُ حدّ الصّخرة البرّاق.

لو أنّها أمطرت لكان وجدَ أثرَ أقدامهِ. لكنّ الأرض يابسةٌ.

كان الدّربُ الذي سلكه يترك الشّمس إلى يساره. هنا، حين كان يحومُ، وُجدتْ قرب الضفّة تلكمُ الأحجارُ الثّلاثة المبقّعة بالأبيضِ، كأنّها به رُسِمت.

V

لكن لمَ يصعدُ الآن هذه التلّة شبه المنحدِرةِ، مع أنّ الأشجار فيها متلاصقة بقدر ما هي في الأسفل، على طول مجاري السّيول الضيّقةِ. يقينا من هنا الطّريق لا تعبرُ.

وليس مِن علٍ يكون قد رأى.

ولا يكون قد صرخ نِداءه.

مع ذلك أراهُ يطلعُ بين الجذوعِ، وسط الأحجار.

بغصن خفيض يستعين حين يُحسّ أنّ التّراب زالقٌ جدّا بسبب الأوراق اليابسة التي تتخلّلها دوما حصى تتدحرج فوقها أخرى: مُعيّنات ضفّةٍ حادّة ورمادية اللون بالأحمر مُنقّطة.

أراه - وأتخيّل القمّة. بضعة أمتار من اللون الموحّد، لكنّها متمايزة جدّا بسبب هذه العُلّيقات التي مرّاتٍ تدرك الأغصان. اللّبسُ ذاتهُ، الصّدفة ذاتُها في أيّ مكان من الغاب آخر، وهو

الأمر ذاته بالنّسبة إلى كلّ ما هو حيّ. طائرٌ سريعا يحلّق فلا يراهُ. صنوبرةٌ سقطت في ليلة ريح سدّت المنحدر الذي يتواصلُ.

وأسمعُ في داخلي هذا الصّوت، الذي من عمق الطّفولة ينبجسُ ـ سبق أن جئتُ إلى هنا ـ كانت حينذاك تقولُ ـ هذا المكان أعرفهُ، فيه عشتُ، كان ذلك قبل الزّمانِ، كان ذلك قبل مجيئي إلى الأرض.

أنا السّماءُ، أنا الأرضُ.

أنا المَلِكُ، أنا هذا الرّكامُ مِن البلّوط الذي دفعت به الرّيح في الوَقْبِ الذي يوجد بين هذي العروقِ.

VI

كانت أعوامُهُ عشرة. العمرُ الذي منه نرى إلى الظّلال تُبدّل أماكنها، بلا انتظام ربّما، وإلى المزَق في ورق الحيطانِ، وإلى المسمار المُثبت في الجصّ الذي يحيطه المعدن الصّدئُ بالثّلمات الطّفيفة للمادّة المبهمةِ. هل ضاعَ؟ فعلاً، هو من مدّة طويلة يتقدّم وسط الألغاز الكبرى. أبدا كان وحيدا. على الشّجرة التي وقعت جلسَ، إنّه يبكي.

ضَائعٌ! كأنّ الماوراءَ الذي تُرسّخهُ نُقطة الاستهرابِ كان ينحني عليه، وكان يلمسهُ مِن كتفه.

عندئذ ترتفع العينان. عندما وجهتان تتوسّلان بالتّساوي ملتقى للطّرقات، فالقلبُ ينبض أقوى وصوتهُ يعلُو، لكنّ العينين حرّتان. في البيت، هذا المساء، عليه أن يضع حطبات على النّار كما يُسمح بذلك: سيراها في عالم آخر تشتعلُ.

ليتكلّمْ، لذاته فقط: ستدوّي الكلماتُ في عالم آخر.

وفي قادم الأيّامِ، في القادم أبعدَ، بعد سنين طويلة، وحيدًا، دوما وحيدًا في غرفته مع هذا الكتاب الذي أنجزهُ: يحملهُ بين يديه، ينظر إلى حروف العنوان السّوداء على الغلاف النّاعم، الملوّن بالأزرقِ. يباعد بين الأوراقِ، ليستقيم الكتاب على الطّاولةِ.

ثمّ يقرّب منه عود ثقاب مشتعلٍ، بقعةٌ رمادية ثمّ سوداء في الصّبغ تُولدُ، تتوسّعُ، تنثقبُ، شريطٌ من النّار الشفّافة يعضّ الحواشي، التي يمحوها بإصبعهِ قبل أن يُعدّل من وضع الأوراق ليعيد رسم العلامة في مكان مِن الغلاف الآخر. هي ذي الآن زاوية بأكملها من الكتاب تقعُ. الورقُ الصّقيلُ، النّاصعُ البياضِ، ورق الصّفحة الأُولى، قد بان في الأسفلِ، مُصابا هو ذاتهُ، مصفرّا، بالحرارةِ.

يَضع الكتابَ، سيحتفظ في ذهنهِ، مازال يجهل السّببَ، بالقرانِ بين الرّماد والجُمَلِ.

VII

نباحُ كلبٍ كان أنهى خوفَهُ. رُكن الشّمس بين السّحائب في المساء. الغدرانُ التي يراها التّلميذ تَأتلقُ في الكلماتِ، في قادم حياته، حين يجرّ قلمه الحَرونَ في تعقّدِ الإملاء السّريع جدًّا.

وكلّ غصن قبالة السّماء ماثلٌ، بسبب اتّساعاتِ جرمها وانحصاراتهِ. اللامرئيُّ الذي هنا يفورُ، عنيفا، كما النّبعُ في ذوبان الجليد. والعنّيبات الحمراء بين الأوراق.

والضّياءُ، قُفولا، الشّعلةُ التي كلّ شيء فيها يبدأُ، وكلّ شيء ينتهي.

العيشُ التّائهُ

١٩٩٣

العيشُ التّائهُ

خيمياويّ الألوان

كانَ اعتقدَ أنّهُ، كما يمكن إنتاج الذّهب من المعادن العاديّة جدّا، كذلك يمكن تحويل الألوان ـ هذه المعادن من الفكر ـ إلى المُعادِل من الذّهب، الضّياء.

وإذن شرع في العمل. مزج الألوان الأكثر اختلافا ولكن أبدا ما كان الحاصل غير الرّمادي، هذا الطّين الذي عنه كان ينتج على اللُّويحة ذات القطم الجيّد، الملساء جدّا، التي كان أرادها لهذه التّجارب. أيّامٌ ثمّ سنوات من البحث! الأعداد الفردية جدّا، المستعارة من فيثاغوراس، من الأفلاطونيّين، من السّحرة، تُناسب كميّات الأزرق والأحمر التي كان يقترحها على الأخضر، على الأصفر الزّعفرانيّ، على النّيليّ، لكن دون جدوى. الأتربة الأكثر ندرة سُحنت وكذلك أيضا تلك الأكثر خشونة من غيرها. المياه الأكثر صفاء، وأحيانا الأكثر تعكّرا أيضا، من تلك التي نرى فيها تقزّحات تمرُّ، سريعة كما الأحلام، تغسل هذه الأخطاء، تناقض هذا اليأس، لكن دون جدوى. لكن دون جدوى دائما. عبثا

حاولت الألوان أن تلتقي، أن تُخصب الواحدةُ من الأخرى، ولُويحات الخشب ـ بل الرّيشات الرّفيعة جدّا، تلك التي نستعملها لتخضيب حدّ الجفن، لتعميق النّظرة ـ عبثا حاولت صهرها بأقصى الأناة، بأقصى الحميمية، أبدا لا شيء كان يتسرّب من هذا الضّياء الذي قد يَصْنع من هذه الأطورَة الخشبية مرآة، وحتّى أكثر من مرآة كما كان الخيمياويّ المنحني على عمله يعتقدُ: إذ أنّ ضياء الأرض إن هو إلاّ انعكاس للحقيقيّ، بلا شكّ، وحتّى رأد الضّحى إن هو إلاّ ظلّ. الرّماديّ، الرّماديّ أبدا، كان العمل ينتهي، كلّما كانت العينان القلقتان تنأيان، تسألان. الرّماديّ مع أنّه أحيانا يصبح هذا الضّياء شديد البياض، كما فرجةٌ بين زخّتين من المطر.

غير أنّه في ذات يوم، ترك الباحث العنيد ـ لكنّه الذي كان يطعن في السنّ، وكان يسأم، حتّى أنّه كان أحيانا ينقطع عن العمل، ولأيّام عديدة ـ قطرة من صبغ زيادة على الخليط عديم الجدوى تسقط من قارورة. وفجأة استعاد انتباهه الذي كان يهنُ. لقد أحسّ، دون أن يكون قد عرف السّبب، باندفاعة أمل مباغتة.

ولعلّ ذلك لأنّه إلى جانب هذا القليل من الأحمر الغامق جدّا، والمُشبع جدّا، كان مدلولٌ جليّ قد ظهر بالتّعاكس، وهو ما كان يُوهم بأنّه انعكاس في طين اللون الآخر، الملتبسِ. وما

تذكّر، فيما بعد، ما ظنّه أو تصوّره في تلك اللحظة، لكنّه بعد شيء من التردّد وضع على حدّ البقعة الحمراء قليلا من الأصفر الزّعفرانيّ، ثمّ كان يبتعد عن الأطورة، الموضوعة الآن مسنودة إلى الحائط، ومُغمِضا عينيه إلى نصفهما، كان يرقب اللونين إلى جانب بعضهما. الله يعلم لِمَ، كان حقلٌ بباله يخطر كان رآه بالماء مُغطّى ذات مساء، عند الغروب، والذي كان عكّره باللونين اللذين كانا يتصادمان في الظّلال، ومُتردّدا أكثر، وضع إلى جانب اللونين ثالثا، الأزرق، لعلّ ذلك بسبب الأحجار التي كان رآها في الجدول الذي، في أسفل الحقل كان يحضن ماءَ بِرَكها.

الآن ثلاثُ بقع، تكاد تتلاحق! ومنها شعاع يطلع، ليس هو الرّماديّ الصّاعد من المادّة المقلَّبة بلا جدوى، ولكنّه ليس أيضا، تماما، مجرّد الشّمس التي كانت تكتنف الحقل في مطلع النّهار.

مرّة أخرى نعثرُ على الخيمياويّ بعد أسابيع قليلة وهو يسبر بانفعال هذه الإسهامات المفارقة للألوان في تقزّحات الخلفيّة الرّمادية، في بِرَكِ المضيء والمعتمِ. قناعته منذ الآن أنّ هذا التّناقض يتحتّم أحيانا، يتكثّف، كأنّ قوّة ضوء كانت عليه تُثقلُ، أو قوّة نارٍ كانت عن طريقه تحاول اختراق المادّة. وتوصّل إلى الاعتقاد أنّه ليس من خليط الألوان، الماديّ بأكملهِ، يُولد في يوم

ما، بغتة ربّما، التمزّق، الضّياء، وإنّما من تجاوزها، الذي يوحّدها في أعلى مستوى.

وها أنّه أخيرا، لكنّ أعواما مرّت، قد أتمّ عمله. الشّعاع يبرق في غرابة، هادئا يشتعل في وعاء مُنجَزهِ الكبير، هذه اللُّويحة من الخشب التي يُبقيها من زمن أمامه مسنودة إلى الحائط. في ودٍّ ننظر من فوق كتفه. أحقّا أنّه ما قام إلاّ بالبحث في علاقاتِ الأصوات والنّسبِ؟ يتهيّأ لنا أنّنا أمام الاستحضار الحرّ إلى حدّ لحقل من الذّرةِ، أو عبّاد شمس، به جدول عند غروب الشّمس، أو بالأحرى مستنقع، باقاتٌ من زهر أصفر مكتسحة بمياه زرقاء. هل أنّنا بصدد لحظة عظيمة من تاريخ الفكر؟ اللحظة التي قد يكون خيمياويّ الألوان قد اخترع فيها رسم الطّبيعة.

مَسك اللوحة بيديه، سيضعها على كومة صغيرة من الحجرِ، فنحن في الخارج، إذا كان لا بدّ من قول ذلك، هو الآن من فترة طويلة يعمل أمام بيته بالقرب من الأحجار المسودّةِ كما لو أنّها كذلك بفعل القرابينِ، وهنا أيضا يبدأ هذا الحقلُ، الذي يتلاشى، في هذه اللحظة، عند طرفه الآخر، في سحابات المساءات الأرجوانيةِ. يَضع اللوحة، يتراجعُ، مرة أخرى، لكنّه الآن راض، سعيد، ثمّ يلتفت وراءه. ثلاث ملائكة هنا، وقوفا، ينظرون إليه مبتسمين. أحدُهم رداؤه أحمر، وآخر رداؤه أزرق

باهت، والثّالث ملتفّ برداء أصفر زعفرانيّ لا أكثر منه كثافة أو تقلّبا. «من أنتم؟» سألهُمْ.

«نحن التّرابُ»، أجابوا. التّرابُ الذي تُبدع. جئنا نجلسُ بقربك تحت العريش. اعطنا خمرا وخبزا. لنا معك حديث يطولُ، يا صاحبي، قبل أن يُقبل الليلُ.

العيش التّائه

كان يجهدُ منذ أيّام أن يكون سعيدا بالسّحائب التي كان في لوحته يكدّسها على طريق صخريّة. ولكن ما الجمالُ إذ نعلمُ أنّنا راحلون؟ غدًا إلى جزيرة أخرى ستحملهُ الباخرة، وهذه لن تعود به. لن يَر هذه الطّريق ثانية.

فجأة، فزِعًا يرتعدُ، ويترك ريشته تسقط، فقليل من المُغرة القاتمة، تقريبا حمراء، يلطّخ أسفل اللوحة. آه يا لها مِن سعادة!

شاتوبريان على ضفّة الأردنّ بعد السّفر الطّويلِ، ما الذي يقدر أن يفعلهُ سوى أن يُترعَ من ماء النّهر حوجلةً؟ وعلى بطاقة يكتبُ: ماءُ الأردنّ.

أيّتها اللطخةُ، يا عيد غطّاس ما لا هيئة له، ما لا معنى له، أنتِ الهِبة اللامتوقّعة التي بأقصى العناية أحملها، تاركا اللوحة المزهوّة غير مكتملةٍ. ستُضيئينني، أنتِ تُنقذينني.

ألستِ مِن هذا المكان ومن هذه اللحظة جزءا حقيقيّا، قطعة من الذّهب، هنا حيث ما كنتُ أُنشد غير البريق الذي يخدعُ، غير

الذّكرى التي تؤلمُ؟ إنّي انتزعتُ مِزقةً من الرّداء الذي أفلتَ كما حلمٌ من أصابع الطّفولة المتشنّجةِ.

أعنابُ زوكسيس

أعناب زوكسيس

قُماشةُ الرّسم في المجرَى الصّخريّ مبلّلةٌ، هي لوحة زوكسيس، الأعنابُ، التي طالما اشتهتها الطّيور المائجةُ، بعنف ثقبتها بمناقيرها الجشعةِ، حتّى اندثرت العناقيدُ، ثمّ اندثر اللونُ، ثمّ كلّ أثر لصورة في هذه السّاعة مِن غروب العالمِ حيث على الأرضيّاتِ جرّتها.

الكلاب

مَوطنٌ من الجبال كلابٌ، وأوديةٌ نُباحٌ، وأحجارٌ منتصبة في النّباح كما كلابٌ موثوقة إلى سلاسلها.

وفي الوثب، في اللهاث، في الهيجانِ، هو ذا البابُ مفتوحٌ، هي ذي الغرفة الكبرى. النّارُ وضّاءةٌ، والطّاولة مُعَدّةٌ، والخمرُ في الدّوارق يُبرقُ.

أعلى الأرض

كان عبءُ السّماء على زجاج النّافذة لا يُحتملُ، كنّا نسمع الظلّ يطقطق، كما يقال، كان أحدهم يصرخُ إنّه مِن... قد رأينا «خفيّا» يطلعُ، وكانوا رجالا ونساء على غاية الجمالِ وكانوا تماما ما عراة، بينما كان أعلى الأرضِ، في أزرق يزداد سوادا باطّراد، يترجّحُ ويسقطُ مثلما حجرٌ.

الليـل

هُو الليلُ، أي الأخضرُ، أي درجاتُ الأزرق وهذا القليل من الأحمر الغميق الذي يعضّ بحثيراته أسفل الصّفحةِ. على عجَل أكتبُ لفظةَ غدير، أكتب ولادةً. أكتبُ رعاة وملوكا مجوسيّين. أكتبُ إنّي أحطّمُ مصباحا وأكتبُ إنّها العتمة.

واجب ألاّ نُوجد

كانوا يُحدّثونني عن حضارة متعيّنة بكلّ وسائط الرَخّام، والسَبّاكِ، والتي كانت وريثة فنّ كلاسيكي كان يحبّ وضع فتيان عراة، وتماثيل صبايا، على مفارق مُدنهِ أو في ظلال معابدهِ. ولكنّ هذا العصر الجديد ما عاد يرغبُ في التّماثيلِ. ليس له إلاّ دكّات أعمدةٍ خاوية حيث كانوا أحيانا يُشعلون نارًا كان البحر والرّيح يقوّسانها. كان الفلاسفة يقولون إنّه هنا توجدُ، في هذي المواقع القفرِ، المنجزاتُ الوحيدة التي لها قيمة: مُضطلعين بين الجموع السّاذجةِ، بواجب ألاّ نُوجدَ.

الضّرير

كان ينظرُ في ثباتٍ باتّجاه الشّمس التي كانت تغيب خلف السّحائب الحمراء. فكيف أمكننا الحديث إليه هو الذي ما كان غيرَ هذا النّصب الهائلِ، الذي كان بعضنا يَحملهُ، في تعـ يتزايدُ، على الأكتاف؟ هو الذي كانت حركتُهُ المنتشيةُ نحو السّما تُطاوع حركاتِ أكتافنا غائصةً ومنتصبةً كما جؤجؤ مركبٍ؟ هو الذي كانت سِحنة المغنّي الضّريرِ، سحنتُهُ، تمّحي فوق الحجار كما امّحت هناك نارُ السّحائبِ الحمراء؟

الحـزّة

الأمرُ بَسيط، نَغمسُ إصبعا في الغواشة الزّرقاءِ، نُزلجهُ فوق الكلمات التي بالكاد تمدّدت في المداد الأسودِ، ومِن خليط المدادِ واللون، يصعدُ، مدٌّ، وطحالب تتحرّك في الماء العكرِ، وهو ما لم يَعُدِ العلامةَ، ما لم يَعُدِ الصّورة ـ انفعالَنا وخديعتَنا. فتحنا أعينَنا، نحن نتقدّمُ، في ضياء الفجر.

لكنّني أفيقُ. قدّامي على الجدار ذي الألوان المُنضّدة التي تتقشّرُ، يُوجد هذا الشّكلُ المحفور في عمقها، مع مسمارٍ، حتّى الجصّ. أهو استحضار خروفٍ يحمله إلاهٌ على كتفيه؟ أهو تصويرٌ قذعٌ؟ الحزّة فعلا تتوغّلُ في ليل الجصّ حتّى أنّ حافّتها الخاويةَ هي وحدها المُعتَبرةُ، الحافّة مِزقٌ لكلّ بحثٍ عن صورة، تبدّدٌ هي لكلّ علامةٍ.

الكتاب

يَتنقّلُ الضّياءُ في القبو، يُوجد أطفالٌ هنا، يقولون لي إنّهم وَجدوا، وإنّهم يُحاولون الآن أن يحملوا إلينا عبر السلّم الضيّق والباب الأرضيّ، ماذا؟ مازلنا لا نعلمُ جيّدا. شيء ما كما «كتاب»، كتاب «بلا نهاية»، «الكتاب». وأنحني على أعلى القضبانِ التي مازالت قليلةَ الضّياءِ، فألمحُ هذه الوجوهَ التي تنقلبْ حتّى تراني جيّدا ـ ضاحكة، شادية، كأنّها الملائكةُ ـ، أسمعُ الأعضادَ، أتلقّى، وسريعا ملء اليدين، كوماتِ الصّحائف الشّهباءِ، المدروزة بخيط سميك أحمر، والرّملَ، الذي ينسلّ بين الأصابعِ، وقطعَ الخشب، بَعضها بالٍ، والحجرَ.

كانوا يحدّثونني

كانوا يقولون لي، لا، لا تأخُذ، لا، لا تلمسْ، ذاك مُحرِقٌ، لا تحاول أن تلمسَ، أن تمسكَ، ذاك جدّ ثقيل، ذاك يجرحُ.

كانوا يقولون لي: اقرأ، اكتب. وكنتُ أُحاولُ، كنت آخذ كلمة، لكنّها كانت تقاومُ، كانت تَفرقُ كما دجاجةٌ مذعورةٌ، مجروحةٌ، في قفص مِن القشّ الأسود المبقّع بآثار دمٍ قديمة.

حجارة

على ظمإٍ دومًا لهذا المكانِ
الذي كان مرآة لنا،
لثمارهِ المقبّبةِ في مائهِ،
لضيائهِ الذي يفور،

وسأحفرُ في الحجارة
كذكرى أنّها قد أبرقتْ
دائرةً، هذه النّارُ المهجورة.
في الأعلى السّماء مُتعجِّلة

كما في النّذر الحجارة مُنغلقة.
ما الذي عنهُ كنّا نبحثُ؟
لا شيء ربّما،
ليست الرّغبةُ إلاّ حلما، يداهُ بلا رغبة.

وعنِ الذي في صورة قد رغبَ،
عبثا ترغبُ النّظرةُ،
الصّوتُ يبقى مُحطّما، وبالرّمادِ
مُمتلئا يبقى الكلام.

عازفان، ثلاثة ربّما

عازفان، ثلاثة ربّما

ثابتٌ تقريبا هذا الحشدُ في السّاحة عند هبوط الليل. ضخمٌ جدّا حتّى أنّني لا أرى هناك ما يمكن أن تكون نهايةُ السّاحةِ، ما يمكن أن تكون الضفّة الأخرى، عدا ربّما هذه الأدخنة المتموّجةُ الحمراءُ التي تحمل الألوان بعيدا في السّماءِ الرّماديةِ، السّوداءِ تقريبا في بعض الأحيان.

وها أنّ عازفا يحاولُ أن يفتح له طريقا بين هذي الكائنات الصّامتةِ. إنّه يعزف على كَمانٍ صغير ولكنّه قادرٌ أن يدفع بكتفه أو بإحدى ركبتيهِ مَن يسدّون عنه الممرّ، وغالبا ما يقوم بذلك من غير انتباه. آه ما أصعب السّيرَ هكذا وحيدا! مرّاتٍ يجبُ التوقّفُ لأنّ كائنين يتكلّمان ولا يكفّان عن ذلكَ، وجها لوجهٍ، والرّعبُ في الأعين وهذه الأيدي التي لا تكفُّ عن التّوضيحِ، وكم هي عديدة في الظّلام. وأحيانا أخرى وجبَ، في غير انتباه، تخطّي هذه الأجسامَ المتمدّدةَ بين سيقان الآخرين، اللامباليةَ مع ذلك،

أو التي تَنامُ. خلف العازفِ، تنغلق الطّريق. قدّامه؟ لا شيء غيرَ الليلِ قدّامهُ، ولا حتّى ضوضاء نهرٍ.

يتقدّمُ العازفُ وسط الحشد المتكاثف دوما، يتقدّم ـ ولكن ها هو يدركُ، فجأة، أنّه مِن البعيد أيضا، مِن هذه النّاحية التي يقبلُ منها، مِن البعيد جدّا، غيرَ مرئيّ، يكادُ لا يُسمعُ، عازف آخر يْحاولُ بدورهِ أن يتقدّمَ، ربّما ليلحق بهِ.

لكنّ هذا العازفَ الآخرَ، ما كان يعزف على كَمانٍ صغيرٍ. آلتهُ هيكلٌ ممشوقٌ، فَتحتُهُ مُضيئةٌ، كأنّما هيَ قفصُ منطادٍ، بشرائط تتموّج في الرّيح على أطراف أغصانٍ لا حصر لها، كلّها شائكة حول ضرب مِن النّواةِ الغامضةِ التي كان، عازفُ الهناكَ، يحتفظ بها بين يديه، إلاّ إذا كان ما نحسبهُ يديه إن هُما إلاّ الشّمسُ والقمرُ، وقد تقاربا الآن في سماء أرضٍ تتغيّرُ. مِقبضٌ من الجلد أسفل الآلة، على ما يبدو، لكنّ الحشد متراصّ جدّا حواليه! الأقرب إلى الظنّ أنّ دور المقبض أن يسحب من عمق نواة الحبل، بين هذه الشّرائط مِن الحرير، من الورق، تدرّجات صوتٍ واضحٍ: صليلٌ يعبر كما الضّحكُ، حفيفُ نسيمٍ بأوراق الشّجرِ، مطراتٌ مختزَلة صفراء وحمراء. الصّوت مرّات ينمو،

وإذن هناك أطفال يلعبون تحت دغلِ البالغين يتدافعون، حتّى أنّهم يسقطون، في لحظات من الرّعب ـ لكنّهم ينهضون، محاولين ذلك بكلّ الوسائلِ ـ ويَرفعون نحوهُ، الذي يعبرُ، رُؤوسَهمُ السّمينة.

هل يوجدُ عازف ثالثٌ، على مسافة أبعد مازال عند الأفق؟ عازفٌ قد لا يصل إلينا إلاّ عند هبوط الليلِ، عندما الحشدُ غير المتميّز منذئذٍ، دون انفعالٍ، لا يكون إلاّ في آخر وشوشاتهِ؟ عازفٌ قد تكون الآلة التي يمسكها بيديه الإثنتينِ، بل التي يلمسها بطرف إصبعه، كأنّما ليرسم عليها علاماتٍ، في الوحْلِ، هذه المرآة حيث كنّا نستمعُ، أطفالا على حافّة النّعاسِ، إلى المطر يقرعُ ويرنّ. شاذٌّ هو مطرُ الصّيفِ، لاهثٌ أحيانا، وأحيانا تقريبا منقطعٌ. ثمّ هي قطرتان أو ثلاث أكثر ثِقلا، ثمّ الهَمرةُ بكاملها مِن جديد. ودوما هي غيرُها، ومع ذلك دوما نفسُ الصّوت المتناثرِ، المجمَّعِ، المنسيِّ، المدركِ مجدّدا حتّى عمقِ اللحظةِ حيث كلّ شيء في الأرض يندثرُ.

ثلاث من ذكريات السّفر

I

كنتُ أتطلّع في لوحةٍ ـ رسمٍ للطّبيعة ـ كانوا يقولون لي عنها باختصار، و«بالتّأكيد»، أو «بشكلٍ بديهي» إنّ منظرا لأرض أخرى فيها قد ظهرَ. وكنتُ أُسائلُ هذه الآفاق الكبرى، هذه السّحائبَ، هذه الأشجار ذات الأوراق البرّاقة، لكن دون جدوى. هل كان عليّ الرّكون إلى الاعتقاد أنّ العالم الآخر إن هو، كما اعتقد ذلك ليوناردو، الرسّام، إلاّ العُقاب غير المرئيّ تماما، الذي يقبض بمخالبهِ، بلطف، على أضوائنا وألواننا، الوحيدةِ دوما؟

كان الوقتُ يَمضي، كانوا يُحضّرون لترتيب اللوحات في خزانةٍ.

وما أدركتُ، إلاّ في اللحظة الأخيرةِ، عندما كانوا يحملونها، أنّ اللغز، أو ما زاد الأمر بداهة، كان يتجمّعُ على أيّة حال في

البقعة الخضراء التي كان يُحدثها ظلّ إحدى الأشجارِ، في تجويفةٍ: هنا حيث كان يوجد أيضا هذا الحائطُ الواطئ، الذي كانت تدفّئهُ، بأحمر هائل مضيء، الشّمس التي مسائيّة صارت الآنَ.

II

ثمَ كنتُ، بظاهرِ يدِي، أُزيلُ البخارَ عن زجاج النّافذةِ.

لكنّني كنتُ ألمحُ مِن جانب إلى آخر شيئا أحمرَ، ملفوفا بأجنحة متعدّدة الألوانِ، مجهّزا بمنقار هائلٍ ومخالب، وكان يصرخُ. وما كنتُ أسمع الصّراخ بسبب سمكِ زجاج النّافذةِ، كنت أبحثُ بيدٍ مضطربة عن المقبض الذي يفتح النّافذة، وما كنت أجدُ غير هيئة ساقٍ، أو ركبة، أو جسمٍ كنتُ أحزرهُ من طغيان رُخام ناصعٍ، مُعرّق بهذه الزّوابع الهائلة التي تضئ ليلَ الأرض أحيانًا.

عندئذ أخذني أحدُهم مِن يدي، وقادني إلى غرفة أخرى.

III

وَها هي الآن هائلةً تُمطرُ في إشبيلية.

أدخلُ المتحفَ، حيث ألمحُ في آخر إحدى الغرفِ، زجاجُ نوافذها مسوّطٌ بالماء، تمثالاً، من الخشب أو مِن الأشجار الملوّنةِ، لامرأة شابّة ترفع مرآة يدوية إلى مستوى وجهها تقريبا، هيكلُها من الفضّة. قفا المرآة، هو أيضا وجه ليَ يبتسمُ. ولمّا كان قليلٌ من الشّمس، المقبل من حيث لا أدري، قد تلمّس الوجه المفترَضَ أنّه حقيقي، فإنّ الصّورةَ في الصّورة، التي تظلّ داكنة، محاطة كلّها بالضّياء.

يمرُّ الوقت، والآن ليلٌ على سان سالفدورِ يحطُّ. ناظرا من بعيد إلى المُصلّى الكائن على يمين مقام الخورسِ، أرفعُ عينيّ وأرى على أعلى الجدار الظلّ المحمولَ ـ كثيفا، مُتمدّدا، إذ أنّ المصباحَ الذي يسبّبه يُضيء قريبا جدّا من إحدى روافد المذبح ـ ظلّ رأسٍ من الخشب مذهّب كان نحّاتٌ منسيّ بالأشعّة قد وشّحهُ.

عبارتان وأيضا أُخَرْ

«جابَ ممرّاتِ البستانِ كلّها في النّور الوضّاءِ، لكن دون أن يعترضه كائن حيٌّ؛ وأخيرا انتهى إلى القاعة الكبرى وآخرُ أشعّة الشّمس، المنعكسة في المرآةِ، أبهرتهُ إلى حدّ أنّه ما استطاع التعرّف على الشّخصين...».

مُدرِكا هذا الحدّ مِن القراءة، ومُنبهرا أيضا، أتوقّفُ. جدٌّ كثيف هذا الانطباع الذي تُحدثه فيَّ هاتان البقعتان السّوداوتان اللتان تتنقّلان هنا خلف الحاجز الزّجاجيّ، تحت الضّياء: كما كائنان يجوسان ذاكرتنا، ظلالا لضفاف نهرِ ستيكس لا بفعل الموت لكن لأنّه لا شيء تبقّى في اللاوعي ـ على الأقلّ هذا ما يؤكّدونه لنا إلاّ الرّموز التي تتشابكُ، رموزٌ لا حضورٌ في عناء الرّغبة. «كائنان يَحييان»، على العكس تماما، كائنان يعودان إلى الحياة، «هذان الشّخصان». ولقاءٌ مِن جديد مُمكنٌ، في مستقبلي حيثُ بإمكان المنقطع أن يتواصلَ، حيث ستتعمّقُ ربّما العلاقاتُ القديمة، غير المنجزة، والتي ظلّت مُهملة. البابُ المزجّج مُنفرجٌ، أليس

كذلك؟ ستنطلق الحياة، ماءً يفيضُ، تيّارا أكثر سرعة، إعصاراتٍ وانحرافاتٍ كانت تسدّ المجرى وتُحطّمهُ.

توقّفتُ عن القراءة. واليوم، بعد إثني عشر عاما، عندما عثرتُ على قفا الظّرف الأصفر أين كنتُ على عجَل قد ثبجتُ العبارة، أقول إنّ الرّواياتِ العظيمةَ ـ والله أُشهِدُ إن كانت «فلهلم ميستر»، إحداها! ـ ليست ربّما إلاّ تلك التي سمحت بأن تُكتسح، في المواقف العادية، التي تثيرها، بالذّكرياتِ، بالحسراتِ، بالطّموحاتِ التي تَثبُتُ فينا بأكثر عمق في الفكر ممّا تكون حيث الإيروس يُحاول اختزالَ الكائناتِ في نظام علاماتها: من هناك في بعض الأحيان على الأقلّ تلك الحدوس التي تخرق الكلام، التي مِن جديد تُفتح فيه طرقات، التي ترسمُ فيه الأحرف الأُولى لرغبة أكثر بدئيّة ـ أكثر ترفّعا، أكثر تعشّقا ـ تلك التي نمتلكها لكنّنا نجهل كيف نتركها تُزهرُ. لحظات من الكتابة لكنّها فيها تعني الحضور. أشعّةُ شمس باغتة: لعلّه المساء، تحت الظلّ حيث كانت الهواجسُ تحرسنا. وهذه العبارات، وكذلك هذه الومضات عند غوته، التي تبدو في ذات الوقت مجرّد حلم، وفعليّا، اندفاعَ هيامٍ قد يخلّص موضوعه من غرقه في العتمة عبر أحلامنا.

شيء ما يناديني في فلهلم ميستر، يعرّفني مرّة أخرى على هذا الكتاب، خاصّة في جزئه الثّاني «سنوات الأسفار» كواحد من بين الكتب الأكثر تقدّما، الأكثر مغامرة في سبر أغوار ما نكونه أو ما يمكن أن نكونهُ.

ومع ذلك، خاضعا لحاجات أُخَر، لاحظتُ، أحببتُ ـ نسخة ثانية ـ عبارات أُخَر. وها هي أمامي، على ورقة صغيرة من الكرتون المهملة غالبا، والمستعادة دوما منذ بداية الخمسينات، هذه البضعة من الكلمات، التي تخصّ دون شكّ فريديريك دي منتفلتر الذي أبدع منه بييرو ديلاّ فرانشيسكا رسما رائعا: «ما كان الذّوقُ ينشغل إلاّ بالخلود وبالجمال الجوهريّ للبنية». وَميضٌ آخر، هذا، لِلونٍ هائل آخر فوق ذات الأرض القاتمة. قصفُ الرّؤى، قصفُ الطّاقات المكوّمة في زاوية مِن الفضاء أخرى.

هل مِن معقولٍ في هذا، حيث أشباه الرّؤى هذه، أو غيرها أيضا، تتصادمُ، لكنّها أيضا ربّما تتآلف، تصيرُ عبارة واحدة، عبارة لسحائبنا وصاعقتنا؟ هل مِن طريقٍ، في مقامنا الأرضي، نمضي فيها تحت هذي السّماء، إليه، حتّى لو بقينا في الجزء الخفيض، ردئ الإضاءة، لهذا التّصميم الذي ترك الرسّامُ فيه الصّورة؟

أيادٍ تُمسك بيديه

يُحاول أن يكتب هذه الكلمة. لمَ الأحرف لا تَمثلُ، تحت ريشتهِ، كما وجب عليها أن تفعلَ؟ بعد الألِف(a)، ما هناك إلاّ الطّرقات خفيضة، أحجار إلى ما لا نهاية، بيضاء، خطيرة، لعلّها رغم ذلك حرف الميم (m). لكن بعد ذلك! سنواتٌ مضت، وهو على دوام المحاولة في تكوين الحرف الثّالثِ، وكان ذلك بلا جدوى. يُحيطون به، رأفوا بحاله، يُريدون مُساعدته، آه، لقد توصّلوا إلى ذلك! يدٌ صارمة تقودُ يده، وها هو في هذا التّعبير الخطّيّ الذي مازالَ، رغم ذلك، أطيارا تحلّق في جلبة وظلال يتقدّم مِن جديد، مُغمضَ العينين، والسّاقان تسعيان في الغدائر، نحو شمس تَبزغُ.

رِوايةٌ مغايرةٌ: كان يكتب كلمة، واحدة من تلك المزدحمةِ بالأحجار، المشطوبةِ بالعوسج، كان المكانُ هادئا، كان الظّلامُ داكنا جدّا على المنحدر بلا نهاية مرئيّة، الذي كان يَجهد في تَسلّقهِ.

وذات يوم، في هذه الكلمة التي كانت تَتشعّبُ، تَتيهُ، تَتجدّدُ، دربا دائما أكثر وعورة، استياءاتٍ كبرى، حزنا هائلا، ذات يوم، فجأة، انسحبت الأرض من تحت قدميه، الأفق استضاء، وذُرًى بانت، وكلّ شيء كيف أعبّر عن ذلك؟ كان يضحكُ، ضحكًا ما عاد ضحك الأسرع في الكلام أو المنخفض صوته أكثر، الذي يظلّ، يسخرُ، يُؤلم، يُهدّمُ، لكنّه طاقة طالعة من كلّ جهة في اللجّة، في الحواجز الصّخرية، في تخرّم أسفل الأودية، غليانا ثابتا، فلا يظلّ شيء هنا، في الأعلى، في هذا المرْج الشّاسع المنحدر في حضرة السّماء، عدا هذه اللطافة، هذا النّسيم العليل، هاتان اليدان اللتان كانتا تمسكان بيديه. الطّفولة ذاتُها، من جديد، لكنّها مِن كلّ غمّ خالية. البداهةُ، كما عندما المياه انغلقت إلى أمبيدوقليس الهادئ.

معايناتٌ في الرّسم

١٩٩٣

الشّجرة، والعلامة، والصّاعقة

I

أن نَرسُمَ: أن نختارَ بين محاكاة شيء أو إنتاج علامة. سواء تعلّق الأمر بمحيط، بإيقاع، بتشكيلٍ نُدركه عند نقطة من الأرض، وهكذا نترك الشّكل الذي يُولد على الورقة يستمع إلى نداء فعل واقعيّ يتعالَى عن كلّ المعارف. أو تعلّق الأمر بأن نخطّ بداية مِن شيء ما في الإدراك الحسّي ـ من شيء، ولكن ربّما أيضا مِن تذكّرٍ مُبهَم لكلّ شيء، قال مالآرميه الهيئة التي هي مرّات مجرّدة بالكامل، التي لا يكون لها من معنى إلاّ اتّفاقا: عدا أنّها تتيح لنا أن نتخيّل أنّه تحت شكلها الاعتباطي فإنّ لها أيضا واقعها، بنفس القدر، إذا لم نقل أكثر، الذي لعالمنا الوهمي. أهيَ مجرّدُ اختراعاتِ حضاراتٍ متعاقبة، منذورة لأن تنغلق على دلالاتها المؤقّتة حين رمالُ الوقت تحجبها؟ أم رمزُ فكرة عن مطلق يتوازن ـ مع أنّ ذلك عسير لما يتطلّبه من اقتصاد أو تمرّن ـ في رواية الذّات لذاتها؟ العلامة هي هذا السّؤالُ حين مجرّدُ التّصوير، مجرّدُ

الاستسلام إلى الخطّ باتّجاه الجسد أو الشّجرة اللذين هما أبعدُ من الكلمات، يَحظى بأن يُبدّد فينا هذه اللغة التي بأسئلتها تكدّرنا.

أن نَرسُمَ ـ أن نقرّر. أن نُمسك بكلتا اليدين، بما أنّ هاتين المقاربتين لما هو موجود، داخله تقاومان مصير الرّوح. وأن نتحيّر، وهذا مُسلَّم به، أو أن ننقطع لفرَقٍ ملتبسة، تسمح أحيانا باعتماد تجارب معقّدة بفهم أفضل للرّهانات والمخاطر، والأوهام والحقيقة لكلّ مذهبٍ.

هوللان؟ نحن أغلب الظنّ لا نعلمُ، وهل يعلم هو ذاتهُ؟ إن كان حقّا قرّرَ. إنّ هذه الرّسوم الكبرى بالقلم القمحي، بالحبر، هي الجوهر ذاته للشّجرة التي يعود إليها دون انقطاع، هي بحقٍّ الاندفاع الذي يرمي بهذا السّنديان من الجذر إلى الغصن، وبالأحجار المكدّسة في الظّلام عند الجذع إلى اهتزازاتِ نهار الصّيف في الأوراق: اندفاع مادّة مشعّة تجعل من هذا الشّيء الواقعيّ ومن هذا الواقع ينبوعا منه تَبتلُّ الرّوح التي هكذا تنحني على ما يسبقها، على ما تحسّ أنّه أكثر من ذاتها. لكن في هذه الأعمال ذاتها أو في غيرها المرسومة، بأكثر بيانية، والتي يعرضها هوللان في مجموعات، عبثا يحاول الشّكلُ أن يستحضر الإيقاع

في الشّجرة العظيمة، وهو ما يسحبنا إلى الظنّ أنّه يشير أيضا، أو حتّى أوّلا، إلى طبيعة شكله الخاصّةِ: بُنيةٌ لا تولد نتيجة لذلك إلاّ من ذاتها، كائنةً دفعة واحدة في مجال كتابةٍ حيث البحث بدون إلزام في عالم الظّواهر ينتهي إلى خرق سياجهِ، مَن يدري؟ ليتيح لنا قراءة نصّ اللامرئي.

بيانُ دالّة كما عشبةٌ تَنبتُ في افتراضياتٍ، لا حدّ لها، للخطّ على الورقة، هذا الحصى. في حين أنّ مجرّد النّظر إلى ما نشاهده في الفضاء، ونسخه برأس القلم قد لا يُؤدّي، كما يعتقد مَن يحبّ العلامات، وحروفَ الهجاء، إلاّ إلى إبقائنا عند الوهمي.

II

الخلاصة، المسألة هي أن نرى أو أن نعرف، أن نريد أن نرى، فحسب، أو أن نتخيّل أنّنا نعرفُ. مَفرقُ الأغصان في وسط الجذع حيث تفترق ضرورتان أو رغبتان للكائن النّاطقِ، وهما بعدُ مشدودتان إلى بعضهما ـ في هذا الخطّ المنبجس من الحبرِ ـ مثلما امتدادان لنفس الطّاقةِ. وطبيعيٌّ جدّا أن يَمثُلَ مبدعٌ في هذه النّقطة مِن تجزُّؤ الفروع الرّئيسيّةِ، غيرَ راغب في حرمان ذاته من أيّة واحدة من هذه الاندفاعات التي تصير، أغصانا، وأوراقا، وثمارًا، حركةَ ريحٍ في الكثافة اللطيفة لمُنجزٍ هائلٍ.

لكنّ الأشجار هي أيضا، في ذات الآن كائناتٌ، مَقصيّةٌ ظواهرُها تحت أنظارنا كما ثمرةٌ تنثرُ بذورها، وما يبدُو أنّ الحياة تنبّأتهُ حتّى تُولد وبأبعد من أشكالها الخاصّة بها، المحرومة بعدُ من المعنى، من الفكرة ذاتها عن العلاقة، تلك التي تريدها اللغات من أجل نقوشها، وطقوسها السّحرية، وتأمّلاتها الرّوحية. وبعد أن أوحَى الصّخب في الأرض ـ ربّما من خلال شجرة الصّنوبر، صخب الرّيح ـ بالكلام، فإنّ شكل الشّجرة المتميّز جدّا هو الذي قد يكون أقبل في صمتٍ ليمثُلَ بالقرب من الصّوت صائرًا فكرةً.

هل يعني الأمر حلما، نعمْ، بالطّبع. لكنّه فطريّ ذلك الشّكلُ الذي يشدُّ إلى ذاته، الذي يبدو مساويا لذاته، الذي يدعو إلى تأمّل ما يكونه، إلى تأمّل ما يمكن أن يكونه، إلى تأمّل معقولية وجوده في العالم، وتأمّلِ الغصن الذي يتثنّى أو يأخذ في غموضِ شكلَ زاوية، على خلفيّة السّحب التي تحتشد أو تتفرّقُ! ومثيلهُ الجذر الذي يبرز، وقد صار بعدُ جذعا، مِن حيث لا نعلمُ، في ما هو دون المرئي! وحتّى أو خاصّة ربّما هذه العُقَدُ للقُوى التي تُضخّم بطاقتها بُقعَ القشرة النّاتئة، تلك التي بدأت إيحاءاتِ شكلٍ ثمّ صارت علامة. تعجّلُ الشّجرة في النُّمو، تلهّفُ الحياة التي ستكون ـ لكن ها هي بعدُ صارت الممتلئة والمحلولةَ. والطّبقاتُ اللونيّة الكثيفة، وفنُّ الحبر الذي يتكوّن كلمة على الورقة. والحبرُ أيضا له إيقاعهُ، وأعراضهُ، ولطخاته المعتمةُ في ضيائه الخاصّ، ضياء هذه الصّفحة حيث بنفسه يُخاطرُ.

III

الشّجرةُ، أُولى العلامات هيَ. من رؤيته للشّجرة بعيدا فوق
أرجال شمس الغروب أو الفجر، ارتأى الكائن العاقل أنّه قد
يكون بإمكانه ـ مُثبِتا عند تعرّج رسمٍ بالفحم على جدارٍ كلامَهُ
المولودَ لكنّه الذي مازال يحبو ـ أن يُلحق بالعالم هذه الإضافة،
بالمرئيّ هذا الغيب الذي قد ينقلب على المظهر، الذي قد يفتح
داخله صدعًا.

وأيّة آمال، في هذا! إذ أنّ هذه العلامة الأُولى، التي لا تزال
محبوسة في أغصان الشّجرة التي لا عدّ لها، التي لا تزال مذعورة
ممّا هو من تحت النّسغ، دائما يلويها، بعد أن شوّهها، وعمّا
قليل سيمحوها ـ وها أنّ نارا تقع من السّماء تَضربُها. الشّجرة
تحت الصّاعقة تَنفلقُ، العلامة تضطرمُ، المدلولية تقرّ أنّها من
واقع أدنى من القوّة الربّانية التي تُحطّمها، لكنّها في ذات الآن
شكّلت لها الصّورة. المدلولية التي هي شكلٌ مِن الكلمات، تعيين
للأشياء، أرضٌ تمتدّ تحت الأقدام أكثر فأكثر، هي الآن ما يُتلف
كلّ هذا، ما لا يَشهدُ إلاّ على الضّياء.

IV

شريانٌ شفّاف مِن الشّجرة التي تحترقُ، من العلامة التي تأوِي، لا الإسم وإنّما العمق الذي كان الإسم يسترهُ. العلامة تستبدلُ الشّيء بمجرّد الفكرة، والأرضَ بمجرّد الصّورة، والوجود بالمنفى، لكنّ الشّجرة المصعوقة تلتصق في حميمية بليغة بالقصف الذي يُزعزعها، بالشّعاع الذي بين السّحائب يركضُ، كي يُحدث بمذراته فجأة تزايدا في النّارِ فلا ندخل مجدّدا في عالم البدء، الذي هو ضياء.

الشّجرةُ التي يرسمها هوللان تنتظرُ الصّاعقة. هاتان العينان مِن وراء التّواصل الجليّ للّحاء، للأغصان، للأوراق ـ هذه الإدراكاتُ التي توحي بها الكلماتُ ـ هاتان العينان تتقنان إدراك آلاف الشّقوق التي تُفضي إلى الجوهر الحقيقيّ، الذي ليس هو المادّة، القابلة للقسمة إلى ما لا نهاية، لكنّه الواحدُ، لكنّه تجربةُ الواحدِ. من ركام الأشياء المتشابكة، من حفيف تجلّيها، يريد هوللان أن يُبرز هذا القدح الطّافح، أن يرفعهُ، أن يراه على يديه يرشح. هكذا عاد، في إلحاحه المزدوج، مِن اختراع العلامة إلى إقرار حضورٍ.

V

وعندئذ نقول في أنفسنا إنّ البرق أيضا حزمة من الجذور، في مزيد من المادّة، وإنّه إذن ربّما يوجد أعلى منه جذعُ شجرةٍ في سماءٍ أبعد من السّماء، بتاجه الآخرِ: غصونٌ، فنٌّ هي ذاتُها مِن نارٍ، منفصلة أيضا كما علامة، غير قابلة للتعقّل أو هي بسيطة جدّا، فوق سحائب العالم، الخفيّ. هذا الفيض هل يوجد، هذه التّنضيدات في هذا الجلاء؟ هذه التّضديدات للكثرة والهدوء هل توجدُ؟ نعمْ، يحدث أن نحدسها عند قبّة ما.

أو في هذه النّقطة الأخرى مِن هذا الانحصار بين الجذور والجذع - بين اللاوعي والكلام -، وهو الشّعرُ، عندما كلمات القصيدة تبدو مفلتة من معانيها لكي لا توجد مذّاك إلاّ لرياح عظيمةٍ تتحرّكُ في قفزةٍ للفكر حيث نكاد نسمع الصّخبَ الذي ينخفض أو يتعاظمُ.

VI

فُروعُ الكتابة، والخطوط المنحرفة في رُكام الكلمات مِن أسفل الورقة إلى أعلاها. وفيها الأكبر من غيرها، والأكثر عُقَدًا، فيها المرنةُ والمضطربةُ.

تُوجد أوراقُ شجرٍ من الكلمات المرسومة حيث نلمح ثمارا هائلة، في سُكونٍ، وسط صخبِ النّحلِ.

جمالُ لحظة الصّاعقةِ هوَ سكونُها. الضّجيجُ الذي يعقبها ليس إلاّ امتثالَ المكانِ.

VII

يسألونني أحيانا عمّا أدعوهُ بالحضورِ. أجيبُ: كأن لا شيء ممّا نلاقي، في هذه اللحظة ذاتِ العمق، كان تُرك خارج انتباه حواسِّنا.

هذه الشّجرة: قد أرى فيها، لا فقط، هذه الهيئات التي تتّجه إلى الخطّ الأماميّ لأنّها تقول لي إنّها سنديانة، لا فقط، هذه الهيئة لأغصانها، لتاجها الذي يؤسّس فيها الجمال، لا فقط، الغليان، عند مفارق في الغاب، غليان القُوى التي تحييها، التي تَقضّها، لكن أرى فيها أيضا هذا الغصن على هذا المدى، في السّماء، بالقرب مِن هذا الآخر، الأقصر منه، وأنّ على الجذع يُوجد هذا التشقّقُ هُنا، في القشرة، وهذا الآخر هناك، وأنّ فوقها تحطّ هذه الأطيار، وأنّ هُنا، بالقرب منّي يمضي هذا النّمل في صمته ويعود. قد أرى، بعبارة أوضحَ: لا امتدادا في الغصن ولكن، أنّ هذا الغصن يتّجهُ نحو هذه النّقطة، وليس أبعدَ، في الفضاء. نقطة هي بذلك تقوم مقام المطلق، في الهاوية التي تتوارى فيها المصادفة كما الماءُ في الرّملِ.

علّني أرى، علّني لا أدري أنّي أرى.

قد لا يبقى فيّ إلاّ الخطّ، مِن الحبر أحيانا غليظا، وأحيانا مخترَقا بالضّياء، خطّ هؤلاء الرسّامين، شرقيّين أو غربيّين، الذين غمسوا ريشاتهم، ومراقشهم، في المطر الذي ينساب فوق الصّخرة، في الرّيح التي تضرب العرَاء.

رَاسمًا عندئذٍ، مُصوِّرا كما السّيلُ يمضي مُستقيما على سطح هذي الحجارة، ثمّ في حركة واحدة يستديرُ، ثمّ مستعيدا لاتّجاهه يبدو، ثمّ أيضا يستديرُ، ثمّ يتّسعُ، وحينئذ يُصبحُ بركة مِن فوقها ننحني، لكن لا وجه فيها يظلّ يظهرُ.

الألواحُ المقوّسةُ

٢٠٠١

حجـارة

في الصّباحاتِ التي كانت لنا،
كنتُ أسحبُ الرّمادَ، كنت أعبّئ الإبريقَ،
كنتُ على البلاط أضعُهُ،
معهُ كانت تنسابُ في كامل الغرفةِ
نفحةُ النّعناع الغامضةِ.

أيّتها الذّكرى
أشجاركِ مزهرةٌ قبالة السّماءِ
لَعلّها تُثلجُ
لكنّ الصّاعقةَ على الطّريق تَنأى
وريحُ المساءِ فرطَ حبّاتها تنثرُ.

حجارة

هَزيلاً كلّ شيء كان، عاريا، مُتغيّرَ الهيئة،
رِياشُ غرفتنا بسيطا كما الحجارةُ كان،
كُنّا نحبّ أن يكون الصّدع في الحائط
هذه السّنبلة التي كانت عوالمٌ تُبعدها.

سَحائبٌ، هذا المساء،
هي ذاتُها التي دوما، كما الظّمأُ،
ذاتُ القماشة الحمراءِ، مفكوكةُ الأزرار.
تخيّلْ، أيُّها العابرُ،
كمْ مرّةً نَستأنفُ، نتعجّلُ، نَأتمنُ.

مطرُ الصّيف

مطرُ الصّيف

I

لكنّه الأثيرُ لكنّهُ
ليس الأقلّ فظاظة
من ذكرياتنا كلِّها
مطرُ الصّيف المباغتُ، المختصرُ.

كُنّا نَمضي،
وكان ذلك في أرض غير هذه،
أفواهُنا كانت تنتشي
مِن نفحة العشبِ.

أيّتُها الأرضُ،
صَفيحةُ المطرِ كانت تغلّفكِ.
كانت كما الصّدرُ الذي
رَسّامٌ كان قد اشتهاه.

II

وما لبثتِ السّماءُ
أن وهبتنا
هذا الذّهبَ الذي
طالما حاولتهُ الخِيمياء.

كنّا نلمسهُ، برّاقا،
على الغصون الخفيضة،
فيه كنّا نحبُّ
على شفاهنا طعم الماء.

وعندما كنّا
نجمع الغصون والورق المُتلفَ،
كان هذا الدّخانُ عند المساء ثمّ، فجأة، هذه النّارُ،
كان هذا أيضا ذهبًا.

حجارة

تَعجّلٌ غامضٌ كان يطلبنا.
دخلنا، فتحنا المصاريعَ،
تَعرّفنا على الطّاولةِ والمدفأةِ
والسّريرِ، كانت النّجمة تَكبرُ عند النّافذةِ،
كُنّا نسمع الصّوت الذي يرغب أن نحبّهُ
في أوج الصّيفِ
كما تلهو الدّلافين في الماء دون ضفاف.

فَلنخلدْ إلى النّوم. صدرًا على صدرٍ،
أنفاسُنا مُمتزجة، اليدُ في اليد دون اشتهاء.

الطّرقات

I

أيّتُها الطّرقات،
يا أطفالا، على غاية الجمالِ إلينا كانوا يَهرعون،
ضاحكا كان أحدهُم، حافيَ القدمين
على أوراقِ الشّجر اليابسةِ.

كُنّا نُحبّ طريقتهُ
متأخّرا في المجيءِ ولكن
لأنّ ذاك مباحٌ
عندما الوقتُ ينتهي،

فقد كُنّا نسعدُ
لسماعنا في البعيد مصفارهُ
البسيط ينتصرُ، مَرسِياس الطّفلُ،
إلاهُ اللاشيءِ عدا انسجامِ الكلامِ.

II

سريعا كان يسحبُنا
إلى حيث الليل يُرخي سدولهُ،
على خطوتين قدّامَنا،
وكان إلينا مُلتفتًا،

ودومًا ضاحكًا،
مُتعلّقا بأغصانٍ،
مُضيئا هذه الثّمارَ
ذاتِ الحضور اللّطيفِ.

كان يمضي، حيث لا شيء ظلَّ،
في حدود ما نعلم يُوجدُ، لكن،
مأخوذةً بغنائهِ، راقصةً، متألّقة،
نَحلةٌ تصحبهُ.

III

كانَ عليها انتظارهُ، سيرَس
عَرقانة، مُغبرةً،
هي التي عنه كانت تبحثُ
في الأرض كلِّها.

منهُ لَعلّها نالت
ملاذًا، وراحةً،
وما خسرتهُ، لَعلّها
عليه كانت تعرّفت

في نورِ غسقهِ الوضيءِ،
وفي صرخةٍ، قبّلتهُ
وضاحكةً حملتهُ
في يديها المحتدّتينِ،

إلى المكان المتبقّي،
وفي الليلِ

تحت أشجارٍ لَجبةٍ،
تَتوقّفُ، تقرعُ أبوابًا مُقفلة.

أمسِ، اللامنتهي

حَياتُنا،
هذي الطّرقاتُ التي تَطلُبنا
في نَضارة المروجِ
حيث الماءُ يأتلقُ.

نَراها تتيهُ
في أعالي الشّجرِ
كما الحلمُ يبحثُ، في حلمنا،
عن أرضهِ الأخرى.

هيَ تمشي، أياديها مُعبّأةٌ
بغبارِ عَسجدي،
تشرعُ في بسيط الأيادي
وإذا بالليل يُقبل.

حجارة

ظِلالُنا قُدّامَنا، على الطّريقِ،
بفعل الأعشاب ملوّنةً، كانت
على الحجارة ترتدُّ.

وظلالُ أطيارٍ كانت تلامسُها
في صُراخٍ، أو كانت تَتخلّفُ، حيث جِبهتانا
على بعضهما تنحنيانِ، تكاد إحداهما تلمسُ الأُخرى
بفعل الكلماتِ التي كنّا نَرغبُ قَولَها.

صوت

I

كلُّ هذا، يا صاحبي،
عيشٌ، يربط
الأمسَ، توهّمَنا،
بالغد، ظلالَنا.

كلّ هذا، قد كان
جدُّ خاصّتَنا، لكن
إن هو إلاّ باطنُ الأيدي
حيثُ لا ماءَ قد بقيَ.

أكلّ هذا؟ والأكثر
سَعادتُنا:
الإقلاعُ الثقيلُ للهدهدِ
مِن قاع الأحجار.

II

ولتكُنِ السّماء
أُسلوبَنا في الوجودِ،
ظلاّ وألوانا
تَتمازقُ

لكن في ذات العجَلة
التي للسّحبِ
لَها وجهُ طفلٍ
للتوّ يولدُ،

صَاعقةً
بعدُ نائمةً،
ساكنةَ الأشعّة مُبتسمة
كما قبلَ وجودِ اللّغة.

حجارة

هُو يذكرُ
مِن زمنٍ يدين مِن التّراب كانتا تجتذبانِ
رأسَهُ وتشدّانهِ
إلى رُكَبٍ مِن الدّفء السّرمدي.

يَبسطُ الرّغبةَ، هذه الأيّام، بين أحلامهِ
هادئٌ هذا القليلُ مِن هياج حياتهِ،
الأصابعُ المُضاءة كانت تبقي عينيه مُغمضتين.

لكنّ شمسَ المساء، مركبَ الأمواتِ،
كانت تَمرُّ على زُجاج النّافذةِ، وكانت تطلبُ السّاحلَ.

حجارة

الكتبُ، هي ما مزّق
الصّفحةُ مُتلفةٌ، غيرَ أنّ الضِّياءَ
على الصّفْحة، غيرَ أنّ تكاثرَ الضّياءِ،
جعلهُ يُدرك أنّه كان مُجدّدا يصيرُ الصّفحة البيضاء.

خرجَ. وجهُ الأرض، المُشرَّط
بدا لهُ مِن بهاء آخر، أكثر طيبةً.
يدُ السّماء بين الظّلالِ كانت تبحثُ عن يدهِ،
الحجارةُ، حيث تَرون اسمَها يَمّحي،
تَنشقُّ كانت، كلمةٌ كانت تصيرْ.

المطر على الوادي

I

هِي تُمطرُ، على الوادي، على الأرضِ.
الهداهدُ حطّت على هُرينا، قِممًا
مِن أعمدة الدّخان الشّاردة.

من أوّلِ زُنبورٍ
الإيقاظَ كنتُ سمعتهُ
في دفء الضّباب الذي على الطّريق يُطبقُ
حيث بعضُ الغدران تأتلقُ.
في هدوء، مُتخفّيا يسعى الزّنبور.
بمقدوريَ الاعتقادُ أنّي هُنا، أنّيَ أسمعهُ.
لكنّ صوتهُ لا يكبرُ إلاّ صورًا.
لكنّ الطّريق مِن تحتيَ ما عادت طريقا،
لا شيء إلاّ توهّمي الزّنبورَ، والهداهدَ، والضّبابْ.

كنتُ أحبُّ الخروج عند الفجر.

كان الوقت في الجمر ينامُ، باتّجاهِ الرّماد جبهتُهُ.

في الغرفة العُليا، جَسدانا في هُدوء يَتنفّسان

جَسدانا اللذانِ كان تَناقضُ الظّلال يَكشفُ عنهُما.

II

مَطرُ صباحاتِ الصّيفِ، بَقبقةٌ
لا تُنسى كأنّها البردُ في مَطلعهِ
على زجاج نافذة الحلمِ، والنّائمُ
كان ينفكُّ عن ذاتهِ وكان يطلبُ عاريَ اليدينِ
في هذه الضّوضاءِ للمطر على اليابسةِ
الجسدَ الآخرَ، الذي كان ينامُ، وكان يطلبُ دِفأهُ

(صوتُ الماءِ على سَقف القرميدِ، في زخّاتٍ،
واجهةُ الغرفةِ
في التموّجاتِ التي بفضل الضّياء تَنفتحُ.
العاصفةُ
اجتاحتِ السّماءَ، والبرقُ
من صرخة عظيمةٍ موجزَةٍ يولدُ
ومباهجُ الصّاعقة تَنتشرُ).

III

أنهضُ، أرَى
أنّ مركبَنا قد حوّلَ وجهتهُ، هذه الليلة.
النّارُ تقريبا قد انطفأت.
البردُ بضربة مِجذافٍ يُطرد السّمَاء.

وسطحُ الماء إن هُوَ إلاّ ضياء،
أمّا في الأسفل؟ فجُذوعُ أشجار بلا لون، وأغصانٌ
متشابكةٌ كما الحلمُ، وأحجارٌ
عنها التيّارُ السّريع تغاضَى
في قَبضة الرّمل تَبتسمُ.

في خداعِ الكلماتِ

I

هُو نَومُ الصّيفِ أيضًا هذه السّنة،
الذّهبُ الذي، مِن أعماق أصواتنا نَنشدهُ
من تحويل مَعادن الحلمِ.
عُنقودُ الجبالِ، عنقودُ الأشياء الغريبةِ،
نَضجَ، يكاد يُصبح خمرًا، والأرضُ
هي النّهدُ المُنكشفُ أين حياتُنا ترتاحُ.
ونسائمُ الرّياح تَكتنفنا، تَستضيفنا.
كما ليلةُ الصّيفِ بدون ضِفافٍ،
مِن غصن إلى آخر تَعبر النّارُ الضّئيلة.
أيا صاحبتي، إنّ هُنا،
في أعلَى انفصالِ ذراعَي النّهر، سماءً جديدةً،
أرضا جديدةً، دُخانا يَلتقي بدخان.
ومَرّة أُخرى الهَزارُ يُغنّي
قبلَ أن يُمسكَ الحلمُ بنا،
غنّى عندما كان أُوليس ينامُ
في الجزيرة أين كان يَتوقّفَ، تيهُهُ

والقادمُ أيضا كان بالحلم قد رَضيَ
كأنّها رَعشةٌ في الذّاكرةِ، وكأنّهُ
بكلّ قوّةِ وجودهِ على الأرضِ
ثَناها تحت رَأسهِ التّعبِ.
أَرى أنّه في اعتدالِ تَنفّسَ
على فراشِ حبورهِ ثمّ على فراشِ السّكينةِ،
لكنّ فينوس في السّماءِ، النّجمُ الأوّلُ،
كَانت بعدُ قد وجّهت جؤجؤها، وإن في تَردّدٍ،
نحوَ عُمق البحرِ، تَحت السّحبِ، ثُمّ كانت تحيدُ،
مَركبا أغفلَ النّوتيُّ،
الذي عيناهُ على أضواء أُخرْ،
أن يَغمسَ في الليل مِجذافهُ مرّةً أُخرى.

بفضلِ هذا الحلمِ ماذا رَأى؟
أهوَ الحدُّ الخفيضُ لشاطئٍ
حيث الظّلالُ واضحةً تكونُ، وواضحا ليلُها
بفعلِ نيرانٍ أُخرْ
غير التي في ضَبابِ تسآلنا المُتواصلِ تَشتعلُ
حينَ في النّوم نَستغرقُ؟

مَراكبُ نحنُ
بذواتنا مُثقلينَ، بالأشياءِ المُنغلقةِ مُرهقينَ، نَنظرُ
مِن بدء رِحلتنا إلى المياهِ الغميقةِ أبدًا
بلا ضفّةٍ تكشفُ عن ذاتها ثمّ تَنغلقُ.
مع ذلكَ،
ففي طيّاتِ الغناءِ الحزينِ
لهَزارِ جزيرة الصُّدفةِ،
كانَ بعدُ يفكّرُ
أن يستعيد مجذافهُ ذات مساءٍ، حين المُجاجُ
مُجدّدا يَبيضُّ، لينسَى رُبّما كلّ الجزائرِ
فوقَ بحرٍ حيث نَجمٌ يكبُرُ.

هَكذا نَمضي صُحبةَ نفسِ المَشرقِ
إلى ما وراءَ الصُّورِ التي تَتركُنا
كلُّ واحدة منها إلى حُمّى التشهّي،
بلا جزَعٍ نَمضي، نَضيعُ، على ذَواتنا نَتعرّفُ
عبرَ بَهاءِ الذّكرياتِ، وكَذبِ الذّكرياتِ
عبرَ عذابِ البعضِ، وأيضا عبرَ سعادةِ آخرين،
نارُهُم تَركضُ في المَاضي الرّماد،

سَحابةً حمراءَ واقفةً على صخور الشّواطئ،
أو لذّاتِ ثمارٍ بتنا لا نَملكُها،
أن نعبُرَ، تقريبا إلى وراءِ اللغةِ،
لا شيءَ معنا إلاّ قليلٌ مِن الضّياء، فهَل مُمكنٌ
هذا أم أنّهُ مازال محضُ تَوهّمٍ، هذا الذي
في خُطوطٍ أُخرٍ لكنّها
مُتقزّحةٌ بنفس اللمعانِ الخادع
نُعيدُ رسمَ هيئتهِ
في الظّلالِ التي تتضيّق؟
لا شيءَ في داخلنا إلاّ الكذبُ المتواضعُ
كَذبُ الكلماتِ التي تَهبُ أكثرَ ممّا يوجدُ
أو تقولُ غيرَ ما يُوجدُ،
لا مساءاتِ الجمالِ
الذي يَتأخّرُ في الرّحيلِ عن أرض أحبّها،
يُشكّلها بيديهِ مِن الضّياءِ بل
مَساءاتِ المِياهِ التي في صَخبٍ هائلٍ
مِن ليلة لأُخرى، في قادم أيّامنا تَنحدرُ.

في ماء الحُلم نَضعُ أرجلَنا العارية،

الماءُ فاترٌ، لا نَعلمُ أمِن الاستفاقةِ
أم أنّ صَعقة النّعاسِ البطيئةِ والهادئةِ بعدُ قد رَسمت
عَلاماتِها فوقَ غُصونٍ يَهزّها قلقٌ،
عَلاماتٌ مُعتِمةٌ لا نستطيعُ التعرّفَ فيها علَى الصّورِ
فلتُفسحْ هذي الأشجارُ لَنا المجالَ حتّى نَمرَّ.
نَتقدّمُ، الماءُ يَعلو كَواحلَنا،
أيُّها الحُلمُ الليليُّ، خُذ بَين يديكَ الجذّابتين حلمَ النّهار
وأدِرْ نَحوكَ جبهتَهُ، وعينيهِ، واسعَ بلطفٍ كي تَذوبَ نَظرتُهُ
في نظرتكَ، الوديعةِ جدّا، من أجل مَعرفةٍ
لا يَغتابُها نِزاعُ الأرضِ والأملُ، وكي تكونَ الوحدةُ
وفي سُكون المُجاج تَبقى، حَيث تَنعكسُ،
إمّا بهاءً، مِن جديدٍ، وإمّا حقيقةً،
ذاتُ النّجومِ التي تَكبرُ في النّعاس.

بَهاءٌ، كافٍ، نهائِي
بَهاءُ النّجوم دُون مَدلوليةٍ، دُونما حَركة،

على الكوثلِ يقفُ النّوتيُّ، أكبرَ من الأرضِ،
أكثرَ منها سوادا، لكنّه مِن ذبولٍ مُشع.

وَشوشةُ الماءِ الذي بالكادِ يَضطربُ،
تُصبحُ الصّمتَ بعد قليلٍ ومازلنا لا نعرفُ
أَهيَ ضَفّةٌ أخرى، أم الأرضُ ذاتُها
هذا الرّملُ الذي، في الطيّاتِ المحمومةِ للمفرش التّرابي،
نَسمعهُ يصرُّ تحت الجؤجؤِ.
نَحنُ لا نَعرفُ إن كنّا نُلامس برّا آخرَ
نَحنُ لا نَعرفُ إن كانت أيادٍ أُخرِ سَتمتدُّ
مِن عُمق المجهول المُحتفي بنا
لتأخذَ الحبلَ الذي نَرمي به، حبلَ ليلِنا.

وَغدًا، مِن نَومنا حينَ نفيق،
حيواتُنا تكون أكثرَ استئمانا رُبّما
حيث أصواتٌ وظلالٌ سَتطيلُ المكوث، لكنْ
منعطفةً، هادئة، سَاهية، دونَ عداوة، دونَ عتاب،
بينما الطّفلُ بالقرب منّا، على الطّريق،
سَيهزّ ضاحكا رأسَهُ الضّخمَ، ناظرًا
إلينا في تَلبّك الرّوح التي تُرجعُ
بُقعة الضّوءِ إلى مَصدرها في الأحجية.

مَازالَ يُتقنُ الضّحكَ،
قد أمسكَ في الفضاءِ بعنقود ثقيلٍ،
إنّا نَراهُ في الليل يَحملُهُ.
قاطفُ العنبِ، لَعلّهُ الذي يَجمعُ
عناقيدَ أخرى عاليا في القادمِ،
يَراهُ يَمرُّ، برغم سيمائهِ غيرِ البيّنةِ
فلنعهَدْ به إلى عناية مَساءِ الصّيفِ،
ولنرقُدْ...
...الصّمتُ الذي أسمعهُ يَضيع،
صَخبُ القاع الكائنِ في الظّلام يَسترهُ.
ألواحُ مُقدّمةِ المركبِ، مُقوّسةٌ
كَي تُعطي الرّوحَ شكلاً
تَحتَ ثِقلِ المجهولِ، وغيرِ المعقولِ تَرتخي.
ما الذي تقولُه لي هذه القرقعاتُ التي
تُفكّكُ الأفكارَ الموصولةَ أطرافها بالرّجاء؟
لكنّ النّعاسَ لامبالاةً يَصير.
أضواؤهُ، ظِلالهُ: لا شيءَ عدَا
مَوجةٍ علَى الرّغبةِ تَرتدُّ.

II

وَلَعلّني قادرٌ
بعدَ حينٍ، عند رجفةِ المُنبّهِ، المُباغتةِ،
أن أقولَ أو أحاولَ قولَ ضوضاءَ المخالبِ
والضّحكَ الذي يَصطدمُ دُونما فرحٍ بنهمِ الحيواتِ البدئيّةِ
عند حدّ الكلامِ المُتصدّعِ.
لعلّني قادرٌ أن أصيح إنّه في الأرضِ كُلِّها
يُتلف اللاعدلُ والشّقاءُ المعنَى
الذي طمحَ الرّوحُ إعطاءَهُ البشرَ،
إجمالاً، أن أتذكّرَ مَا يُوجدُ،
ألاّ أكون إلاّ الوعيَ الذي يَيأسُ،
وبرَغم الوهمِ الماكرِ كما أغصانُ حديقة أرميد؟
الذي بنفس القدر يخدع العقلَ والحلُمَ،
فإنّ الكلماتِ إذا تُركت لمَن يشطُبها،
نَثرٌ، لبداهةِ المُحتوى،
عَرضٌ للجمالِ في الحقيقة.

لكن يتهيّأُ ليَ أيضًا أنّهُ

لا حقيقيٌّ عدا الصّوتِ الذي يَأملُ، حتّى وإن كان
علَى غير وَعيٍ بالقوانينِ التي تنكرهُ.
حقيقيّةٌ وَحدها، رَجفةُ اليدِ
التي تُلامسُ ما تعدُ به أخرى، حقيقيّةٌ، وحدَها،
هذي الحَواجزُ التي في الغبشِ نَدفعهَا،
حينَ المساءُ يَأتي، مِن طريق إيّابهِ.
أَعرفُ كلَّ ما يجبُ شَطبهُ في الكتابِ،
كَلمةٌ تظلُّ، معَ ذلك، تُلهب مِنّي الشَّفة.

أيُّها الشّعرُ،
لا أستَطيعُ التوقّفَ عن مُناداتكَ باسمكَ
الذي ما عادَ مَرغوبا فيهِ بَين تلكَ التي
تَتيهُ اليومَ بين أطلالِ الكلام.
أُجازفُ بالحديث إليكَ مباشرةً، كما
في بلاغة الأزمنةِ حيث كانُوا،
في أعلَى أركانِ الغُرفِ الكُبرى، عشيّةَ الأعيادِ،
يَضعونَ أكاليلَ مِن الثّمارِ والورَقِ.

أُجازفُ، واثقا مِن أنّ الذّاكرةَ،

وهي تشرحُ كلماتِها البسيطةِ
للذين يُحاولون خلقَ المعنى برغمِ الأُحجيةِ،
لَهم ستفكّكُ، على صَحائفها الكبيرةِ،
اسمكَ الواحدَ والمتعدّدَ، حيثُ سَتشتعلُ
نارٌ وضّاءة، في هدوءٍ، ولهم سَتفكِّكُ
سُروعَ شكوكهِم ومَخاوفهم.
«انظروا سيَقولُ، في الكتابِ الوحيدِ
الذي يُخطُّ عبر العصورِ، انظروا الصّورَ
في العلاماتِ تَكبرُ والجبالَ
في البعيد تَزرقُّ، حتّى تكونَ أرضًا لكُم.
اسمعوا الألحانَ، عند قمّةِ الأشياءِ
مِن نايها البارعِ تكشفُ
عن صوتِ اللونِ في ما يُوجدُ».

أيّها الشّعرُ،
أعلمُ أنّهم يَحتقرونكَ، يُنكرونكَ،
مَسرحًا وحتّى كَذبا يَعتبرونكَ، أنّهُمْ
بأخطاءِ اللغةِ يُكبّلونكَ، أنّهُمْ
يَقولون رَديءٌ هو الماءُ الذي تَحملهُ إلى الذين هُمُ

على أيّ حالٍ في شُربهِ راغبينَ
ومُستائينَ، باتّجاهِ الموتِ يلتفتونَ.

وصَحيحٌ أنّ الليلَ يُفخّم الكلماتِ،
أنّ رياحًا تُقلّب صفحاتها، أنّ نيرانًا
تَحوش دَوابَّها المذعورةَ إلى عندِ أقدامِنا.
فهل خِلنا بعيدًا سَتوصِلنا الطّريقُ
التي في البداهة تَشردُ، لا، الصّورُ
بالماءِ الذي يَرتفعُ تَصطدمُ، تراكيبُها
مُتهافتة، رَمادٌ، وحتّى أنّهُ،
لن توجدَ صُورٌ قريبا ولا كُتبٌ،
وَلا كُتلٌ أرضيةٌ حاميةٌ
نَضمُّها بأيدي رَغائبنا.

غيرَ أنّي كذلك أعلمُ
أنّهُ لا نجمَ آخرَ، في سرٍّ، وعرافةٍ، يتحرّكُ
في السّماء الوهميّةِ للكواكب الثّابتةِ،
إلاّ مَركبكَ المُعتم دَوما، حيثُ في المقدّمة الظّلالُ
تَتجمّعُ، وحتّى أنّها تُقرّظ القادمينَ

كمَا فيما مَضى حين قدّامهُمُ، آخرَ السّفرِ الطّويلِ،
كانت الأرضُ تكبُرُ في المُجاج، والمنارةُ كانت تُضيء.

وإذا لم يبقَ
شيءٌ آخر إلاّ الرّيحُ، إلاّ الصّخرةُ
إلاّ البحرُ، فإنّني أعلمُ إنّكَ، حتّى في الليلِ،
سَتكون المرساةَ ملقاةً، والخُطى المترنّحةَ فوقَ الرّمالِ،
والحطبَ الذي نَجمعُ، والشّرارةَ
تحتَ الغصون المبلّلةِ، وفي الترَقُّبِ القلقِ
سَتكونُ الشّعلةَ التي تَتحيّرُ
بَدءَ الكلام بعدَ السُّكاتِ الطّويلِ،
بَدءَ النّارِ التي تَشتعلُ في أسفلِ الأرض المَوات.

بَيتُ المولدِ

I

أَفقتُ، إنّهُ بيتُ المَولدِ،
كان المُجاجُ على الصّخر يَنطرحُ،
ولا طيرَ، وحدَها الرّيحُ تَفتح الموجَ وتُغلقهُ،
رائحةُ الأفقِ مِن كلّ صوبٍ، رَمادٌ،
كأنّما الهضابُ كانت تُخبّئ نارًا
في موضعٍ آخر تَحرِق أرضًا بأكملهَا.
دَخلتُ الشّرفةَ، مُعدّةً كانت الطّاولةُ،
كان الماءُ يَضربُ قوائمَ الطّاولةِ والمِقصَفِ.
كان لا بدّ أن تَدخلَ، مع ذلك، التي ليس لها سِيماء
التي كنتُ أعلمُ أنّهَا
كانت تَرجّ بابَ الرّواقِ،
مِن ناحية الدّرجِ المعتّمِ، لكن بلا جدوَى،
جدٌّ مرتفعٍ في الغرفة كانَ الماء.
كنتُ أديرُ المقبضَ، الذي كان يُقاومُ،
كنتُ بالكادِ أسمعُ ضَجّة الحافّة الأخرَى،
ضحكَ الصّبية في العُشب العالِي
وألعابَ الآخرينَ، علَى الدّوامِ الآخرينَ، في حُبورهِم.

II

أَفقتُ، إنّهُ بيتُ المَولدِ.
هَادئةً كانت تُمطرُ في الغُرفِ،
تِباعا كُنتُ أعبرُها، وكنتُ أرنُو
إلى الماءِ يُبرقُ في المرايا المكدّسةِ
في كلّ ناحٍ، مُهشّمٌ بعضُها أو حتّى محشورٌ
بينَ الرّياشِ والحيطان.
مِن هذا البريقِ، أحيانًا، كان يَطلعُ
وَجهٌ ضَاحكٌ، في لطافةٍ أكبرَ وغير التي هيَ الأرضُ
وكنتُ أُلامسُ، مُتردّدا، في الصّورةِ
خَصلاتِ الربّة المُشعّثة،
وتَحتَ حجابِ الماءِ كنتُ أَكتشفُ
جِبهتَها الحزينةَ الشّاردةَ، جبهةَ الطّفلةِ.
حَيرةٌ بين أن نُوجد أو لا نوجدَ،
يَدٌ تَتردّدُ في ملامسةِ البُخارِ،
ثمّ كنتُ أسمعُ الضّحكَ يَبتعدُ
في أروقةِ البيتِ المهجور.

هُنا لا شيء إلاّ الرّائعُ دومًا،
إلاّ اليدُ المَمدودةُ
التي لا تَعبرُ الماءَ السّريعَ، حَيث تَمّحي الذِّكرى.

III

أَفقتُ، إنّهُ بيتُ المَولدِ،
كان الليلُ قد أقبلَ، والأشجارُ مِن كلَ الجهاتِ
على بَابنا كانت تَتكوّمُ،
كنتُ وَحدي على العتبةِ
في الرّيح الباردةِ، لاَ، أبدًا ما كنتُ وحدي، كائنان
هائلانِ كانا، يَتكلّمان فَوقي، مِن خلالي.
أحدُهما خَلفي، امرأةٌ مُسنّةٌ، مُحدودبة، شرّيرةٌ،
والآخرُ، في موضع آخرَ واقفًا كَأنّه قنديلٌ
امرأةٌ جَميلةٌ، تُمسكُ قدحا كانُوا أَهدَوه لَها،
بنَهم تَشربُ منهُ في عَطشٍ كبير.
هل قصدتُ سُخريةً، بالتّأكيد لا، بل صرخةَ حبٍّ
أَطلقتُها لكن في غَرابة اليأسِ،
وإذا السّمومُ بين جَوانحِي تَنتشرُ
سِيرَس، مَخدوعةً، حَطّمت مَن أحبَّها.
هذا ما تَقولهُ السّيرةُ المَطموسةُ اليومَ في الحياة.

IV

مَرّة أُخرى.
الوقتُ ليلاً لا يزالُ، كان ماءٌ يَزلِقُ
على التّربةِ السّوداءِ في صَمتٍ،
وكنتُ أعلمُ أنّهُ لن يَكون ليَ مِن عملٍ إلاّ التّذكّرُ،
وكُنتُ أضحكُ، أَنحني كُنتُ،
آخذُ مِن الطّين حزمةَ أوراقٍ وأغصانٍ،
وعنها أَرفعُ الجُرمَ الذي كان يَسيلُ
بين يديَّ المشدودتينِ إلى قلبي.
ما نَفعُ هَذا الحَطبِ المُفرِطِ في السّكونِ
بِرغم ضجيجِ اللونِ الذي يَرتفعُ،
ما همّني، كُنتُ أحثُّ الخطَى
باحثا عن حظيرةٍ ما، على الأقلّ،
تَحت هذا الحِمل مِن الأغصانِ التي كان لَها مِن كلّ ناحيةٍ
نُتوءاتٌ، وَخْزاتٌ، رُؤوسٌ، صَرخات.

وأَصواتٌ، كانت بالظّلالِ تَرمي على الطّريقِ،
أو كانت تُناديني، وكنتُ أَلتفتُ،
لاهثَ القلبِ، إلى الطّريقِ الخاوية.

V

على هذه الحالِ، في الحلم ذاتهِ
مُمدّدٌ أنا في آخر قاع المركبِ،
الجبهةُ والعينانُ، علَى ألواحهِ المقوّسةِ
أستمعُ إلى أسفلِ النّهرِ يلطُمها.
وفجأة يَرتفعُ الجؤجؤُ، أظنّهُ هنا
مَصبُّ النّهر لكنّني
أُبقي نظري على اللوح الذي
له رائحة القطرانِ والغِراء.
شَاسعةٌ جدّا هي الصّورُ، وَضّاءةٌ جدّا
التي في حلميَ قد رَاكمتْها.
لَمَ النّظرُ، إلى الخارج، ثانيةً، إلى الأشياءِ
التي تُكلّمُني، لكن دون إقناعٍ،
أَرغبُ ضفّةً عاليةً أكثرَ أو مُعتمةً أقلّ.

مَع ذلكَ أَتخلّى
عَن هذه التّربةِ التي تَتحرّكُ تحت الجسدِ
الذي عن ذاته يَبحثُ، أنهضُ،

أَمشي في البيتِ مِن غرفة إلى غرفةٍ،
الآن أَعدادهُمُ غَفيرةٌ،
أسمعُ أصواتا خلفَ الأبوابِ تَصيحُ،
مَأسورًا بهذه الأوجاعِ تلطمُ الأُطرَ
التي تتداعَى، أُسرعُ،
ثقيلٌ عليَّ الليلُ الذي يطولُ، فزِعًا أدخلُ
غُرفةً تعجُّ بالمقارئ
انظرْ، يَقولون لي، كانت قاعةَ درسِكَ
انظرْ، على الجدرانِ تَصاويرُكَ الأولَى
انظرْ، إنّها الشّجرةُ، انظرْ، هُنا، إنّه الكلبُ يَنبحُ،
وهذه الخارطةُ، على سطح الحائط
صَفراءُ، وهَذا الكمدُ في الأسماءِ والصّورِ،
هذا التّراجعُ للجبالِ والأوديةِ،
بفعل البياضِ يُنعسُ اللغة،
انظرْ، قد كانَ هذا كتابَكَ اليتيمَ.
إيزيسُ التي مِن جصٍّ جدارِ هذي الغرفةِ، الذي يتقشّرُ،
أبدًا ما كان لهَا، ولن يكونَ لهَا
شيءٌ آخر تَفتحهُ قليلا لأجلك أو تغلقُهُ.

VI

أَفقتُ، لكنّ ذلك في السّفرِ،
طِوالَ الليلِ يَركضُ كان القطارُ،
هو الآن يَمضي إلى سُحب هائلة
هُناك واقفةٍ في اكتظاظ،
فجرٌ، تَعرُّجُ الصّاعقةِ
إلى لحظاتٍ يُمزّقهُ.
كنتُ أرقُبُ الأرضَ مِن أدغالِ الطّمي تُقبلُ،
وفجأةً، مِن خفيضِ حقلٍ مِن الأحجارِ والكرومِ، نارٌ
أُخرى تُقبلُ. الرّيحُ والمطرُ كَانتا
تُخفضانِ على الأرض دُخانهما،
لكنّ شُعلةً حمراءَ كَانت وسْطها تَنتصبُ،
مِلءَ يَديها حاملةً وَطئَ السّماء.
فيا نارَ الكرّامينَ مُنذ متى تَشتعلين،
مَنِ الذي علَى الأرضِ هُنا أرادكِ ولمَن؟

بعدَ ذلك طلعَ النّهارُ، والشّمسُ مِن كلّ ناحيةٍ
رَمتْ بآلاف السّهامِ داخلَ العربة،

حيثُ نيامٌ رُؤوسهُم، برفقٍ تَتهدهدُ
فوق دانتيلاّ الوسائدِ مِن نَسيج الصّوف أزرق. ما كنتُ نائمًا
ما كنتُ أدركتُ سنين اليأس بعدُ
كُنتُ أُهدي كَلماتي إلى الجبالِ، الخفيضةِ،
التي كنتُ أراها تُقبل عبرَ زُجاج النّافذة.

VII

أَذكرُ، كان ذلك ذات صباحٍ،
كان الوقتُ صيفًا، كانت النّافذةُ مُنفرجة،
كنتُ أقتربُ، كنتُ أرى والدي في آخر الحديقة.
كان ثابتا، كان ينظرُ
إلى أينَ، إلى ماذا، ما كنتُ أعرفُ، أَبعدَ من كلّ الأشياء،
مُحدودبا كان لكنّهُ،
يُصوّبُ أنظارَهُ نحو غيرِ المنجَزِ أو باتّجاهِ المُستحيل.
كان رَمى بالمعولِ، والمعزقةِ،
هَواءُ الأرضِ كان باردًا ذاكَ الصّباح،
لكنّ الرّطوبةَ ذاتَها غامضةٌ، وعنيفةٌ
كانت ذكرياتُ صَباحاتِ الطّفولة.
مَن كان ذاكَ، كيفَ كان يَبدُو في الضّياء،
ذاكَ ما كنتُ لا أعرفهُ، ومازلتُ لا أعرفُ.

لكنّني ألمحُهُ في الشّارع أيضًا
ببطء يَتقدّمُ، كثيرٌ من التّعبِ
يُثقلُ حركاتهِ القديمة

كان يعودُ إلى عملهِ، أمّا أنا
فكنتُ صحبةَ البعضِ مِن زملاءِ الصفّ أَهيمُ
في بداية العصرِ الذي كان وَقتُهُ بعدُ لا يَتمدّدُ.
لهذا الممرّ المترائي من بعيدٍ
فلتُهدَى الكلماتُ التي على التّعبيرِ لا تَقدرُ.

(في غُرفة الأكلِ
عصرَ يوم أحدٍ، والوقتُ صيفٌ،
الأصفاقُ مُغلقة لاتّقاء الشّمس،
الطّاولةُ خاويةٌ، كان اقترحَ أوراقَ اللعبِ
فما كانت هُناك صُورٌ أخرى
في بيتِ المولدِ
لاحتضان سؤالِ الحلمِ، لكنّهُ يخرجُ
وفورًا يأخذُ الطّفلُ الأرعنُ الأوراقَ، يُبدلُ
تِلك التي للعبة أخرى هي
بأُخرى كلُّها رابحةٌ، وبرغبة يَنتظرُ
أن يُستعاد اللعبُ،
وأن يَربح الذي كان يَخسرُ، وبفخارٍ كبيرٍ إلى حدٍّ أنّهُ
يَرى فيه شبهَ عَلامةٍ، وما بهِ

يُغذّي، هو الطّفلُ لا يعلمُ، أيَّ رَجاء.
ثُمّ طريقانِ تَفترقانِ،
وإحداهُما تَضيعُ، في الحالِ تقريبا،
ثمّ النّسيانُ، النّسيانُ الشّرِهُ.

شَطبتُ ما أمكنني
هذه الكلمات في كلّ مكانٍ، شعرًا، ونثرًا،
غيرَ أنّي أبدا لا أملكُ ما بهِ أَمنعُها
مِن الظّهور مُجدّدا في كلامي.)

VIII

أفتحُ عينيَّ، إنّهُ بالفعلِ بيتُ المَولدِ،
بل الذي كانَ ولا شيء أكثرَ.
غُرفةُ الأكل الصّغيرةُ ذاتُها، حيث تَفتح النّافذةُ
على شجرةِ دُراقن لا تكبرُ.
رَجلٌ وامرأةٌ، قبالةَ بعضهما
يَجلسان أمام هذه النّافذةِ، ولمرّةٍ يَتحادثان.
الطّفلُ مِن آخرِ الحديقةِ إليهما يَنظرُ، يُحدّق فيهما،
هو يَعلمُ أنّ الولادةَ
مِن هذه الكلماتِ مُمكنةٌ.
الغرفةُ وراء الوالدينِ مُعتمةٌ.
الرّجلُ للتوّ عادَ مِن العملِ. التّعب الذي
كان الهالةَ الوحيدةَ للحركات التي
سُمح لابنهِ أن يَحدُسها قد فَصلَهُ بعدُ عن هذه الضفّةِ.

IX

وإذّاك يومٌ أتَى
يومَ سمعتُ هذا القصيدَ الرّائعَ للشّاعر كيتس،
تَذكُّرُ رُوثُ «لمّا، وقد تَملّكها الحنينُ إلى الدّيارِ،
وَقفتْ باكيةً وَسط الذّرى الغريبة».
والحالُ أنّهُ، مِن هذه الكلماتِ
ما كنتُ مُلزَما أن أُدركَ المعنَى
فقد كان في داخلي مُنذ الطّفولةِ،
كان يكفيني تَذكّرُهُ، وكان يَكفي أن أُحبّهُ
حين عادَ مِن عمق حياتي.

ما الذي كانَ عليّ، في الواقع، جنيُهُ
مِن الحضور الأمّيِّ المتهرّبِ
إلاّ الشّعور بالمنفَى، وإلاّ الدّموع التي كانتْ
تُغشّي هذه النّظرةَ المحاولة أن ترى
في أشياءِ الهُنا، المكانَ الضّائعَ؟

X

عندئذٍ ولادةٌ كانت، ومُجدّدا
بَيتُ مَولدٍ كان. حَوالينا
الهُري أعلَى الكنيسةِ المُتلفةِ،
لَعبُ الظّلالِ اللطيفِ، لَعبُ سَحائب الفجرِ،
وهذه الرّائحةُ فينا مِن التّبن اليابسِ
التي ظلّت في انتظارِنا، كما كان يَبدو لَنا،
مُنذُ آخر كيسٍ رُفع، مِن القمح أو الشّيلمِ في القديمِ
بلا نهايةٍ لضياءِ مواسمِ الصّيفِ
المُتنخّلةِ بالقرميدِ السّاخنِ.
كنتُ أحدسُ أنّ النّهارَ يَنبجسُ
كنتُ أفيقُ وألتفتُ مِرارا إلى التي
في البيت النّائيّ بجانبي تَحلمُ.
فلتُهدَى إلى سُكونها، في المساءِ،
الكلماتُ التي تبدو كأنّها لا تَقولُ إلاّ أشياء أُخَر.

(كنتُ أفيقُ،
كنتُ أُحبّ هذه الأيّام التي كانت لَنا،

أيّامًا مَحميّةً كَما نهرٌ يَسير الهُوينا، برغمِ أنّهُ
بصخبِ قبيباتِ البحر بعدُ مُحاصرٌ.
كانت، في جلالِ الأشياءِ البسيطةِ تَتقدّمُ، أشرعةُ ما يُوجدُ
كانت تَودُّ أن تأخذ معها
الحياةَ الإنسانيّة العابرةَ فوق المركبِ
التي مِن حولنا كان يَبسطها الجبلُ.
أيّتُها الذِّكرى،
بصفقاتِ صَمتِها، وبصخبِ الماءِ على الأحجارِ
كانتِ الأشرِعةُ تُخفي ضجيج أَصواتنا
وفي المقدّمة، الموتُ واردٌ جدّا، موتُ
هذا اللونِ الأبيض لأطرافِ الشّواطئِ في المساء،
عندَما الصِّبيةُ في الماءِ الخفيضِ والسّاكنِ
يَضحكونَ، وأيضا يَلعبون.)

XI

وأُقفلُ عائدا، وذلك عبرَ طريقٍ
تَعلُو وتَلتوي، خُلنجاتٍ، وكُثبانا
فوق ضجيجٍ مازالَ غيرَ مَرئيّ،
مَع التخفّي الجيّدِ أحيانا لشوكِ الرّمالِ الأزرقِ.
هُنا، يَتجوّفُ الوقتُ، هنا الماءُ الأبديُّ
الذي يَتحرّكُ في المُجاجِ، عمّا قليلٍ
أكونُ على خطوتينِ مِن السّاحلِ.

وألمحُ أنّ سفينةً
في عرض البحر تَنتظرُ،
سوداءَ، كما شمعدانٌ بكمِّ الغصونِ
التي تُغلّفها الحرائقُ والأدخنةُ.
ما العملُ؟ كانُوا مِن كلّ النّواحي يَصرخون
ألا تجبُ مُساعدة الذين هُناك يَطلبون منّا السّاحل؟
نَعم، تصرخُ العتمة
وسبّاحونَ، في الليلِ، أَراهمُ نحو السّفينةِ يُقبلونَ
حاملينَ بأيديهمُ فوق المياهِ الهائجة،

قناديلَ ذاتِ شرائط ملوّنة.
الجَمالُ ذاتُهُ في مكانِ مَولدِهِ،
حينَ هذا مازالَ بعدُ حقيقة.

XII

جَمالٌ وحقيقةٌ، وهذهِ الأمواجُ العاليةُ
فوق هذه الصّرخاتِ التي تُعاندُ. كيف نُبقي
على الرّجاءِ قابلا أن يُسمعَ في الضّجيجِ، ما الذي علينا أن نَفعلهُ
حتّى تكونَ الشّيخوخةُ ولادةً من جديدٍ
حتّى يُفتحَ البيتُ، مِن الدّاخل، حتّى لا يكونَ الموتُ وحدَهُ
هو الذي يُطرِدُ مَن كان يَسأل عن مكانِ ولادةٍ.

الآن أُدركُ
أنّ سرِس هي التي
بَدت ليَ، في الليلِ، تَطلب مَلجأً
حينَ كان البابُ يُطرقُ، وبالخارجِ، كيف بانَ
جَمالُها في وَمضةٍ، وضِياؤُها ورَغبتُها أيضًا،
وحَاجتُها للشّرب في شرَهٍ مِن قدح الرّجاء
لأنّهُ كان ضائعا
لكنّ العثورَ عليه مُمكنٌ ربّما،
هذا الطّفلُ الذي ما كانت تَعرفُ،

هي، الربّانيةُ والغنيّة بذاتها، كيفَ تَرفعهُ
في ألقِ القموحِ الخضراءِ حتّى تَكون لهُ
ضِحكتهُ في الجلاءِ الذي يُحيي،
قبلَ أن يرغبَ فيهِ ربُّ الأمواتِ.

الرّحمةُ إذن لسيرس لا السّخريةُ
لِقاءٌ على مفارق الطّرقاتِ في الليلِ العميق،
صَرخاتُ استغاثةٍ مِن خلالِ الكلماتِ، حتّى دُون إجابةٍ،
كَلامٌ حتّى إن كانَ غامضًا فهو قادرٌ
أن يُحبّ سرِس التي تسعَى وتَألمُ.

الألواحُ المقوّسةُ

فارعَ الطّول كان الرّجلُ، فارعَ الطّول جدّا، الذي كان على الضفّة يقفُ، بالقرب من المركب. ضياء القمر كان وراءه، على ماء النّهر مُنطرحا. مِن ضجيج طفيف كان الطّفل الذي يقترب، هو الصّموت جدّا، يدركُ أنّ المركبَ كان يتحرّك ضدّ رصيفه العائم أو ضدّ صخرة. كان يَضغط بيده على قطعة الجلد الصّغيرة.

«صباح الخير، سيّدي»، قال بصوت مُفصح لكنّه كان يرتبكُ، كان يَرهبُ أن يبالغ في جلب انتباه الرّجل، العملاق، الذي كان ثابتا هناك. لكنّ النّوتيّ الذي كان يبدو غائبا عن ذاته، كان قد لمحهُ وهو بعدُ خلف القصبِ.

«صبَاح الخير، يا ولدي، أجابه. مَن تكون؟

- آه، لا أعلمُ، قال الطّفل.

- كيف، لا تعلم! ألا تحمل اسما؟»

حاولَ الطّفلُ أن يفقه ماذا يكون الإسم. «لا أعلم» قالها ثانية، وبسرعة.

«لا تعلم! لكنّك تعلم جيّدا ما تسمعُ حين يُشار إليك، عندما ينادونك؟

ـ إنّهم لا ينادونني.

ـ ألا ينادونك حين الرّجوعُ إلى البيت يحينُ؟ حين تَكون لعبت في الخارج، وآن غداؤك، ونومُك آن؟ أليس لك أبٌ، أليس لك أمٌّ؟ أين بيتك، قُل لِي».

والآن الطّفلُ لا يكفّ عن السّؤال عمّا تُفيده أبٌ، أمٌّ، أو بيتٌ.

«أبٌ، قال، ما معنى؟»

يجلس النّوتيّ على الصّخرة، بالقرب من مركبه. صوته يُقبل من مسافة في الليل غير بعيدة. ولكن قبل ذلك كان أطلق ضحكة مُقتضبة.

«أبٌ؟ إنّه من يضعكَ على ركبتيه عندما تَبكي، ومن يجلس إلى جانبك عندما تخاف أن تنام، ليحكي لك حكاية».

لم ينبس الطّفل إجابة.

«كثيرونَ مِن بيننا ما كان لهم آباء، صحيحٌ، واصلَ العملاقُ كلامه، وكأنّما ذلك بعد بعضِ تأمّلٍ. وعندئذ هناك هؤلاء النّسوة الشّابات والعِذاب، كما يقولون، اللاتي يُشعلن النّارَ، ويُجلسنك بالقرب منها، ويُنشدن لكَ أغنية. وإذا تركنكَ، فلكي يهيّئن الأكلات، نحن نشتمّ رائحة الزّيت الذي في القدر يحمي.

ـ «لا أتذكّرُ هذا أيضا»، قال الطّفل بصوته النّاعم الشفّافِ.

واقتربَ من النّوتيّ الذي هو الآن صامتٌ، كان يسمع تنفّسَهُ المنتظمَ والبطئ. «عليَّ أن أعبر النّهرَ، قال، عندي ما أدفعُ مُقابل العبور».

انحنى العملاقُ، وبيديه العريضتين رفعَ الطّفلَ، وضعه على كتفيه، ونهضَ، ونزل مركبه الذي ارتخى قليلا تحت ثقلهِ. «هيّا، قالَ، امسكْ برقبتي جيّدا!» كان بيدٍ يمسك الطّفلَ من ساقه، وبالأخرى يثبّتُ في الماءِ العصا. وفي حركة مُباغتة تَشبّث الطّفلُ برقبة العملاق مطلقا تنهيدة. عندها أمكن للنّوتيّ أن يأخذ العصا بكلتا يديهِ، سحبها من الطّين، المركب تَرك الضفّة، صوتُ الماء انتشر في العتمة تحت الأشعّة.

بعد حين إصبعٌ يَلمس أذنه. «ما رأيكَ، قال الطّفل، هل ترغبُ أن تكون أبي؟» لكنّه فجأة عن الكلام توقّفَ، الدّموعُ هشّمت صوته.

«أكون أباكَ! ما أنا إلاّ النّوتيّ! أبدًا لا أُجاوزُ إحدى ضفّتي النّهر».

- لكنّني سأبقى معكَ، على ضفّة النّهرِ.

- لكي يكون المرء أبًا، وَجب أن يكون له بيتٌ، أتجهلُ هذا؟ ليس لي بيتٌ، أنا أقيمُ في أَسَلِ النّهرِ.

- سأسعدُ بالإقامة قُربك على الضفّة!

ـ لا، قال النّوتيّ، مُستحيلٌ، وانظرْ هناك!

ما وَجبت رُؤيتُهُ، أنّ المركبَ بدَا يتراخى تحت ثِقل الرّجل والطّفلِ، وكان في كلّ لحظة يزداد ارتخاء. النّوتيُّ يَجهد في دفعه إلى الأمام، الماءُ يُدرك مستوى الحافّة، يتجاوزها، يملأ بتيّاراته الهيكلَ، يصلُ أعلى الرّجلين الضّخمتين اللتين تُحسّان أنّهما تتهرّبان مِن كلّ سنَدٍ في الألواح المقوّسةِ. المركبُ الصّغيرُ لا يغرقُ، مع ذلك، بل كان كما لو أنّه يَتوارى، في الليل، والآن، الرّجلُ يسبحُ، والطّفلُ دوما برقبتهِ. لا تهرَعْ، قال، ليس النّهر بالعميق جدّا، قريبا نصلُ.

ـ آه، أرجوكَ، كُن أبي، كن بيتي!

ـ انسَ هذا، يجيب العملاقُ، بصوت خافتٍ. انس الكلمات...».

عادَ العملاقُ يمسكُ بيده السّاقَ الصّغيرةَ، التي صارت بعدُ ضخمة جدّا، وبذراعهِ الطّليقِ أخذَ يسبح في هذا الفضاء اللامتناهي مِن التيّاراتِ التي تَتلاطمُ، ومِن اللُّجج التي تَنفرجُ، ومن النّجومِ.

رميُ الأحجار

السّير أسرع

لـمَ كانوا يَرقبون الأفقَ؟ لـمَ كانوا يُثبّتون أنظارَهم على ذاك المكان هناك باستمرار؟ لعلّ مردَّ ذلك أنّهم، ببساطة، كانوا نحوهُ يركضون مِن وقت طويلٍ على هذه الطّريق الليلية، التي ما كان جانباها إلاّ امتداداتٍ محصّبةً، أحيانا مُحدّبة بهضاب وَطيئةٍ ليس فيها غيرُ بضعةِ أعشابٍ تحت السّماء الشّاسعة خاويةِ النّجوم. من البعيد، مِن البعيد جدّا، سطران لا متناهيان من الجبالِ. شيء ما كما ذراعان تنفتحان حولها، كانتا تطلبانها أن تتقدّمَ، هناك حيث كانت الطّريق كما لو أنّها تنطرِحُ. لكنّ ساعات عديدةً مرّت وهذه البدايةُ للطّريق مازالت تتخفّى، تمّحي، تُزيح المنحدراتِ المفترَضةَ، المرجوَّةَ، بعيدا عن الإسفلت العاري! ساعات عديدة! في حين كان على الليل أن يَرحل مِن فترة طويلة جدّا.

كانوا يرقبون الأفقَ، في مستوى السّماءِ، كانوا صامتينَ، ما عادوا قادرينَ على فصل تأمّلهم عن هذا المكان حيث الطّريقُ تخترق الكتلة السّوداءَ الملتبسة.

وَها أنّ حُمرةً تَظهرُ فيها، فجأة، على اليسار قليلا من مقدّمة الطّريق، هنا حيث من لحظة، كانت الأرض تَنتفخُ، بلا شكّ، تَنتفشُ حدْباتٍ، وربّما تجويفاتٍ فيها ماءٌ. الحُمرة تَكبرُ، تُطلق قبضتها على الأفق، بُقع مِن الضّياء الكثيفِ، كأنّها مِن نارٍ، منها تنبجسُ، والسّماءُ مِن حولها كانت بعدُ وردية ـ كانوا إلى بعضهم ينظرونَ، كان على وجوههم شيء من هذا الوردي.

لكنّ ذروةَ الشّمس الحامية كانت تَتلكّأ في الظّهورِ. وبعد دقائقَ طوالٍ، سريعا ما بدت الحُمرةُ، التي ما عادت تكبرُ، في التّناقُصِ، ثمّ صارت تفعل ذلك بوضوحٍ، الشّعلةُ التي كانت بداخلها تتحرّكُ انطفأت، وعادت مرّة أخرى رمادا أُرجوانيّا. الضّياءُ اندثر على مستوى هذي الهضابِ المتقاطعةِ بين السّماء والأرضِ. ومِن جديد كان ليل البارحة الكبيرِ، بلا أنجمٍ.

السّير أبعد

الطّريقُ منذ حين تَحصّبت، ثمّ مِن الصّخرة شرعت تَتضخّمُ، تَفلق الأرضَ، نُتوءاتُها كانت لا تكفّ عن الانتشارِ، كان على السيّارة أن تهتزّ فوق هذي العروق الهائلةِ التي كانت تَتمزّق في نقاطٍ (من الطّريق)، ناشرةً عبر مُنخفضاتٍ من الحصاة الغليظةِ أو مِن الرّمل نوعا آخر مِن العتمة، أكثر كثافةً أيضا، مِن تلك التي لليل الذي يسودُ الأرض منذ الآن بلا نهايةٍ قابلة لأن تُدركَ. أن نتقدّمَ في هذه الظّروف، آه، كم كان الأمر صعبا! مرّاتٍ كان علينا أن نَنزل من الكبريلة ـ فالسيّارة الآن صارت مكشوفةَ السّطحِ، مِن داخلها كنّا في طلاقة نتنفّس الهواء العليلَ ـ لنَرْفعها مِن جانب ونسمحَ لها بذلك أن تُجانب واحدة من هذه الأحجار التي بالكاد تَتبيّن في الظّلام، والتي هي مرّاتٍ أكثر عرضا وطولا ممّا كنّا نظنُّ. وكنّا نخاف أكثر أن تعترضنا قريبا على هذه الحافّة مِن طريقنا أو تلك صخرةٌ أكبرَ حجما قد تَسدّ الممرّ. وَمن يدري إذا كنّا، عندئذ، قادرين على الانزياح عن قارعة الطّريق عبر أحد

أخاديد الحافّة لنجدَ وراء الطّريق التي تَمضي مُستقيمة (يظلّ هذا احتمالا)؟ مع ذلك، كان علينا أن نسيرَ بما أنّ المحرِّك، في غموضٍ، كان بذلك يقبل، أن نتقدّمَ بأيّ ثمنٍ، أن لا نكفّ عن التقدّم في غضون هذه الهزّات الكبرى التي، ما كنّا لنجرَأ على معرفتها جيّدا، كانت تَحدثُ أيضا في السّماء: جبالٌ، بسبب الماء رُبّما، كانت تنهارُ، كُتلٌ كروية الشّكل تقريبا كانت ببعضها تصطدمُ، كانت تدفعُ بعضها، ومِن جديدٍ تَعودُ تَلكُمُ بعضَها، وكانت تُدوّي أو تبرُمُ في صَخب الهاويةِ العظيمِ ثمّ تضيع في ما لا علّة لوجوده، في الغياب.

رمي الأحجار

وكنّا هُنا، في الليل، بالأحجار نَرمي. نرمي بها أعلى، وأبعدَ ما يُمكننا، في هذا الغاب قدّامنا، الذي بسرعة كان ينزل المنحدرَ حتّى بدَا وكأنّه وادٍ تحت أقدامنا، بصوت مائِه المنسكبِ تحت الشّجر.

أحجارٌ، أحجارٌ هائلة كنّا نُحرّرها مِن الأجمات، في عسرٍ ولكن على عجَل. أحجارٌ زرقاء، أحجارٌ برّاقة في الظّلام.

كنّا نرفعها بكلتا اليدين فوق رُؤوسنا. وكم كانت ثقيلةً على هذه الصّورةِ، كانت أعلَى، وأضخمَ مِن كلّ ما في الأرض! حينما كنّا نرمي بها بعيدا هناك، مِن الجانب الآخر الذي لا اسم لهُ، في الهاوية حيث ما عاد يُوجد أعلَى ولا أسفلُ، ولا صوتُ مياهٍ، ولا نجمٌ. وكنّا ننظرُ إلى بعضنا ضاحكين في ضياء القمر، الذي كان ينبجسُ من كلّ ناحٍ تحت ظِلّة السّحبِ.

أيادٍ سريعا مُشرّطةٌ، أيادٍ بالدّماء مُضرّجةٌ. أيادٍ كانت تُزيح العروق، تَنبشُ الأرضَ، تَلتفُّ على الصّخرة التي تقاومها. وكان الدّم يُضرِّج وُجوهنا أيضا، لكنّ أَعيننا كانت دائما ترتفعُ مِن الأرض المكتسَحة نحو أعين أخرى، وأيضا كان هذا الضّحكُ.

حجارة

كانَ قد رَغبَ
ألاّ تكونَ المِسلّةُ حيث بعضُ العلاماتِ
التي لعلّها تَسعى إلى قولِ ما حدثَ
إلاّ واحدةً مِن هذه الأحجارِ التي تَتدحرجُ
تحت قدميهِ عندما كان ينزلُ، وهو مازالَ طفلا،
مُنحدراتِ وادٍ كان أحبَّهُ.

عَلاماتٌ مُتعذِّرٌ تَمييزُها عن هذه الوشماتِ
التي تجعلُ كلّ حجارةٍ، مثلاً
كما صفيحةُ كوبالت، في ذات الوقتِ فريدةً
وعلى تمامِ الشّبَهِ بكلِّ الأُخريات.

وحجارتُهُ هذهِ، لكي تتحدّثَ
إلى هذا الواديِّ الذي يعني لهُ

كلَّ جمالٍ، كلّ حقيقةٍ، ها هيَ
قربَ السّيلِ السُّفليِّ وسْط أحجارٍ أُخرْ.

أيُّها العابرُ، عندما تُقبلُ، هل سَتميّزُها،
هل سَتدركُ أيّةَ أحلامٍ، أيّةَ آمالٍ، هذه الكلمات
مِن لُغاتٍ أُخَرْ، ذاتِ أراضٍ أُخَرْ
ستُقرأُ منها، في البقايا التي خَلّفها
فيها الجليدُ، والأمطارُ، والصّاعقةُ؟
بقدمكَ ستدفعُ هذا المطلقَ إلى الأسفلِ أكثرْ.

الأعلام والأماكن والأعمال
التي تضمّنتها الانطولوجيا

ـ أ ـ

أفلاطون /٤٢٧ ـ ٣٤٧ق.م Platon/. (والأفلاطونيّون).

فيلسوف (يوناني) أخذ الفلسفة عن سقراط، شارك في بعض مراحل حرب أثينا ضدّ الإسبرطيّين، وعلى أثر وفاة سقراط /محكوما عليه بشرب السمّ بتهمة إفساد الشباب وإنكار الآلهة/، هجر أثينا مستاء إلى الكثير من بقاع الشرق الأدنى، ثمّ عاد إلى أثينا، وأسّس مدرسته الخاصة /الأكاديمية/.

هو مؤسّس المثالية الموضوعية التي تقوم على القول بوجود الصّور الخالدة للأشياء التي سمّاها «المثل» أو الأفكار، ووحّد بينها وبين الوجود، ووضع في مقابل «المثل» العدم الذي وحّده بالمادّة والمكان «وفي رأيه أنّ العالم الحسّي، الذي هو نتاج المثل والمادّة، يشغل مكانة متوسّطة... فالمعرفة الأصلية لا تكون ممكنة إلاّ على المثل الموجودة الحقّة... ومنهج المعرفة هو الجدل...».

إمبادوقليس /٤٨٤ ـ ٤٢٤ق.م Empédocle/.

شاعر (يوناني) نشأ في مدينة أكراغاس /Acragacc/ في صقلّية، كان متميّزا في نشاطه السّياسي /كان في الوقت ذاته أرستقراطيا وواحدا من أبطال الدّيمقراطية/، عرض عليه ملك أكراغاس السّلطة لكنّه رفضها، كان شاعرا متميّزا، وواحدا من مجدّدي فنّ الخطابة والنّثر المسجّع، وكان له تأثيره على الطبّ في عصره... في قصيدته «التطهّرات» ادّعى الألوهية، ورآه النّاس يقوم بالطّقوس السّحرية... تقوم رؤياه على القطع مع القول بأنّ العالم

يتكوّن من مادّة واحدة، وعلى التأسيس للقول بأنّه مكوّن من العناصر الأربعة: النّار والهواء والماء والتّراب، وإنّه توجد قوّتان هما المسؤولتان عن التغيّر والحركة: الحبّ والبغض /أو الجذب والتّنافر/ أو إيروس وأنتيروس.../

أوديسة (الـ) /Odyssée/.

هي الجزء الثاني من الملحمة اليونانية العظيمة المنسوبة إلى الشاعر (اليوناني) هوميروس /الجزء الأوّل هو الإلياذة/.

بعد فتح مدينة إيليوس وسقوط طروادة يبحر القائد أُوليس عائدا إلى مدينته إيتاكا. والأوديسة وصف مطوّل لما عاناه أوليس في تطوافه قبل إدراك مدينته واستعادته لحكمه... تعانده الرّياح وتقذف به إلى عديد السّواحل وتدفع به إلى عتمات البحار حيث تعترضه الكائنات الغريبة، ويقع مرارا في شباك المخاطر ويتخلّص منها، ويدوم ذلك عشرة أعوام، ثمّ يصل مدينته ويستعيد حكمه.

أوليس /Ulysse/.

(انظر الأوديسة)

إيروس /Eros/.

إذا أمكن اللقاء بين الشّواش والعتمة والإيريب /ابن الشّواش وشقيق العتمة وزوجها ووالد الأثير والنّهار والمتحوّل إلى نهر مدفوع إلى الجحيم ذاته/، فذلك بفعل توسّط قوّة إلهية خالدة كعناصر الشّواش ذاته، توسّط علني لإله هو، دون أن يكون الحبّ بصورة واضحة، في تماثل معه.

عند الإغريق يسمّى هذا الإله القديم، أو السابق عن جميع الآلهة إيروس - Eros، إنّه هو الذي يوحي بالتّعاطف /غير المرئيّ وغير القابل للتّفسير/ بين الكائنات، أو هو الذي ينتج هذا التّعاطف ليجمع بينها ويبعثها من جديد... وإذن فإيروس هو إله الاتّحاد والمصاهرة الكونية: ولا كائن يفلت من سيطرته... مع ذلك له منافس في العالم الإلهي: أنتيروس /Antéros/ إله النفور والبغض، له كلّ الصفاة المناقضة للتي يمتلكها إيروس: يفرّق ويفكّك ويجزّئ...

إيزيس /Isis/.

«التي هي على العرش»، تجلس وبرأسها قرني الربّة بقرة، مجهولة النّسب، دخلت الميثولوجيا (المصرية) كأخت وزوجة لأوزيريس /Osiris/ وبدأ حضورها متميّزا منذ موت زوجها... هي التي وجدت جثته واعادت إليه الحياة... اعتبرت أوّلا ساحرة خطيرة تجاوز في قوّتها ما يملكه باقي الآلهة مجتمعين... ثمّ نُسبت إليها قدرات خارقة في الشّفاء، ثمّ صارت موضوع عبادة كأمّ للكون...

- ب -

بيرو ديللا فرانشيسكا /١٤٢٠ ـ ١٤٩٢ وPi ro della francesca/.

رسّام (إيطالي) مُقرّ له كعلم في فنّ الرّسم في عصره /عصر الانبعاث الأوّل/ وفي التأثير على تاريخ الرّسم في ما تلا عصره: توازن واتّساق، وانسجام بين المنظوريّ والمختزل، والبحث البنائي، والحساسية الملموسة حيث الجزالة والصّرامة تلتقيان مع الشّعر....

بساتين أرميد /les jardins d'Armide/.

هنا، الأمر يعني أكثر من إشارة إلى مكان معيّن /في فرنسا/ بل يعني انفعالا لبونفوا برائعة ملحميّة معروفة هي: «القدس منقذة» لتوركاتو تاسّو /انظر تاسّو/.

بوتيتشللي /١٤٤٤ ـ ١٥١٠ Boticelli/.

رسّام (إيطالي) يُعتبر من نوابغ الرسّامين لما تعكسه أعماله، وبروعة، من نزعات إنسانية كونية /خاصّة في عملين رئيسيّين له: الرّبيع، ولادة فينوس/ نسبت إليه بلا جدال، قبل غيره... شرع /حوالي ١٤٩٠/ في رسم «الكوميديا الإلهية» لدانتي /Dante ـ الشّاعر الإيطالي/... بجملة أعماله تلك يظلّ الممثل الأكثر صفاء وارتباطا بذلك «الرّبيع للانبعاث في فلورنسا» لأنّه أبدع في التّعبير، «وفي مناخ شعري ولا واقعي» عن كلّ صنوف التّوق الجيّاش فيه.

بوريس دي شلويزر /١٨٨١ ـ ١٩٦٩ Boris de schloezer/.

مفكّر وكاتب وناقد (روسي) نشأ في عائلة موسيقية بمدينة بياتيغورسك /

المشهورة بمهرجانها الموسيقي/ سافر إلى بلجيكا حيث درس علم الاجتماع /شهادة دكتوراه/ وعاد إلى روسيا. في عام ١٩٢١ اضطرّ إلى الهجرة، وأقام في باريس إلى تاريخ موته.

نشر العديد من المقالات، والرّوايات، والمحاولات الفلسفية إضافة إلى ترجمات جيّدة لمبدعين روس /غوغول، وتلستوي، وديستويفسكي، وشيستوف/. لكنّ مقارباته في الموسيقى هي التي أسّست لحضوره المتميّز في عالم الابداع، ومن أشهر أعماله في مجال الموسيقى، إضافة إلى «قضايا الموسيقى الحديثة»، كتابه الشّهير «مقدّمة لجان سبستيان باخ /J.S.Bach/ الذي اعتبر نصّا مؤسّسا للحداثة في الموسيقى، لأنّه «إعادة تحديد للمبادئ التقليديّة للآثار الموسيقيّة، كالشكل والإيقاع والنّغم، وتطوير للمفاهيم الرّئيسة لهذا الفنّ...».

بوسّان /١٥٩٤ ـ ١٦٦٥ Nicolas Poussin/.

رسّام (فرنسي) يُعتبر الأوّل والعمدة والمعلّم في الرّسم الكلاسيكي، تخلّص من «العقلنة» بفعل ولعه الشّديد بالطّبيعة، جمع بين إجلال القديم، الذي ألهم تركيباته المتناسقة، حيث يكون الشّكل في خدمة الفكرة، والميل إلى المشهد الطّبيعي، حيث ردّ إلى الوحدة تعقّد العالم وأنسن الطّبيعة بإدماجها في معطى فلسفي، وديني، وأخلاقي، وشعري.

ـ ت ـ

تاسّو /١٥٤٤ ـ ١٥٩٥ Torquato Tasso/.

شاعر (إيطالي) من نبلاء بلاط فرّاري /Ferrare/ كتب الملحمة البطولية والكوميديا الرّعوية وعدّة أعمال شعرية منها «القدس مُنقذة» التي وضعته في مصاف كبار شعراء الملاحم. في هذا العمل يمزج بين الاستحضار التّاريخي لغزوات الأماكن المقدّسة ورسم العواطف الجيّاشة مطلقا غنائيّته إلى أقصاها في الفصول الدّنيوية: «بساتين أرميد جميلة جدّا حتّى أنّها أغرت الفارس بدخولها فأسرته المرأة صاحبة البستان ـ لتتلهّى به وقتا، غير أنّها تقع أسيرة حبّها للفارس...» أنهى تاسّو عمله هذا عام ١٥٧٥ ولكنّه، خوفا من اللعنة وغضب الكنيسة، لم ينشره إلاّ عام ١٥٨١. لمرّتين تستنطقه محاكم التّفتيش، يصاب بنوبات جنون ويرمى به في مستشفى فرّاري /١٥٨٦ ـ ١٥٧٩/. في عام ١٥٩٣ ينشر «القدس مُحتلّة»، صياغة مهذّبة للأولى لم

تضرّ رداءتها بمكانته. في عام ١٥٩٥ ينعزل في دير «القديس أونوفريو»/ Sant'Onofrio/. في روما، حيث يموت.

- ر -

راسين /١٦٣٩ ـ ١٦٩٩ Racine/.

مسرحي (فرنسي) من أشهر أعماله: أندروماخ /Andromaque/ وفيدرا / Ph dre/، في كلّ أعماله، إجمالا، تناول متواصل للصّورة التّقليدية للتّراجيديا القديمة بتمثيله الإنسان مكبّلا بأقداره. صوّر شخصيات بائسة، لا حول لها تجاه عواطفها المهتاجة التي تتسبّب في ضياعها. شُهد له بالاتقان الفني الذي يجمع بساطة الوسائط بكثافة الشّعري.

- ز -

زوكسيس /٤٦٤ ـ ٣٩٨ق.م Zeuxis/.

رسّام (يوناني) هو واحد من أعلام الرّسم في العصور القديمة، من أشهر لوحاته «زيّوس على العرش» و«مرسياس مكبّلا»، يستعمل مؤثّرات الضّياء والظّلام، والعديد من عناصر المشاهد الطّبيعية، فنّه متميّز بأسلوب واقعي ومؤنسن، توقه لجعل الأشكال في انسجام مع الأحجام يجاوز توقه لتجسيد تعبيرات المشاعر. قال عنه أرسطو «لعلّه من المستحيل أن نكون كما يرسم زوكسيس، لكنّه يرسم الأشياء أفضل منّا...».

- س -

ساتير (الـ) /Satyre/.

إلى جانب الآلهة حماة الطّبيعة، وحرّاس الحياة وملكيات الإنسان ومصالحه، كان الشّعراء اليونانيون القدامى قد تخيّلوا عددا من الكائنات هي دون الإلهية ولكنّها عجائبية يبدو أنّه ما كان لها من دور، في الخرافة، إلاّ إعمار الجبال والغابات، وخلق البهجة فيها /ومرّات تعكير صمتها ووحدتها/ والساتيريّون كانوا من هذا النّوع من الكائنات. كانوا بشرا صغيري الحجم، مكسوّة بالشعر أجسامهم، ذوي قرون وقوائم ماعز، وقد ذكر سكّان باتراخيا /Patras/ إنّهم رأوا «هؤلاء الشياطين البشريّين الصّغار» يقفزون بين الصخور، وعلى قمم التلال، ويختفون في كهوف ومغارات ملغزة... ويضيفون إنّ السّاتير الأوّل كان ابن الإله بان /Pan/، إله الطّبيعة المفكّرة والمخصبة والخلاّقة والمبدع

لخطط الحروب وفنونها، وإنّه /أي السّاتير/ هو الذي أبدع آلة البوق من الصّدف البحري... و«كان الرّعاة يخافون من السّاتيريين على أنفسهم وعلى قطعانهم فكانوا يسعون إلى تهدئتهم بالقرابين والإضحيات من بواكير الثّمار والمواشي...».

سرِس /Cérès/.

في الميثولوجيا اليونانية هي ابنة كرونوس /Cronos أي الوقت/ وسيبيل / Cybèle ـ آلهة الأرض/.

وُهبت ملكة فنّ فلاحة الأرض... منها تعلّم النّاس حراثة الأرض وزرعها وحصاد القمح وصناعة الخبز... ذكرت في القصائد القديمة ربّة للأرض أو للفلاحة... أُخذ نبتون /Néptune ـ إله البحر والجزر والسّواحل/ بجمالها، ولكي تفلت منه تحوّلت إلى فرس فتحوّل هو إلى حصان... خجولة من العنف الذي سلّطه عليها نبتون لبست الحزن وانعزلت في مغارة، وأطالت في عزلتها إلى حدّ أنّ العالم صار على حافة خطر الموت من الجوع لأنّه، خلال غيابها، أصيبت الأرض بالعقم، واكتشف الإله» بان» /إله الصيّادين/ مكان عزلتها فأنبأ جوبتر /Jupiter ـ أخوها/ الذي بمساعدة الأقدار /Les parques/ استطاع أن يخفّف من آلامها وأن يعيدها إلى العالم محرومة من مآثرها.

ـ ش ـ

شاتوبريان /١٧٦٨ ـ ١٨٤٨ Chateaubriand/.

مبدع (فرنسي) رومنسي، كتب في التّاريخ، وفي «السياسة» وفي الأخلاق، متأثر بفلاسفة القرن الثامن عشر، يمجّد مع روسو /J.J.Rousseau/ الوضع الطّبيعي للإنسان، بدأ قابلا بالعقلانية ضدّ العقيدة المسيحيّة /لكنّه ينكر التطوّر الانساني.../ ثمّ عاد إلى عقيدته في اطمئنان، من أهمّ آثاره: محاولة في الثورات، أتالا، الشّهداء، عبقرية المسيحية، مذكّرات ما بعد الموت. وبونفوا يستحضره هنا من خلال أثره «رحلة من باريس إلى القدس»، في هذا العمل يقول بعضهم «شاتوبريان جديد يولد، مألوف، روحاني، وحسّاس، والصّفحات عن إسبرطة، عن أثينا، تظلّ رائعة...».

- غ -

غوتة /١٧٤٩ ـ ١٨٣٢ Johann Wolfgang Von Goethe/.

يحتلّ غوته مكانة استثنائية في الثقافة الألمانية، وأهميّته بالنسبة إلى هويّة الثقافة الألمانية لا يمكن مقارنتها إلاّ بتلك التي لشكسبير /Shakespeare/ بالنّسبة إلى الثقافة الإنقليزية. كان واحدا من أهمّ المبدعين الكونيّين في التقليد الاتّباعي وفكر الأنوار: شاعر، وكاتب مسرحي، وروائي ارتفع باللغة الألمانية إلى قمّتها، وإلى جانب ذلك هو مفكّر ناقد، وعالم قادر على منافسة نيوتن /Newton/ في نظرية الألوان، وعداني /minéralogiste/ وعالم نباتي /botaniste/، ورسّام ذو موهبة عالية، ورجل سياسة جعل من المدينة الصّغيرة فايمر /weimer/ إحدى عواصم الثقافة الأوروبية... من أشهر أعماله: فاوست /١ و٢/، وآلام الشاب فارتر، والدّيوان الشّرقي والغربي، /الذي يؤكّد فيه على أنّه ليس بإمكان أوروبا الاستغناء عن الحوار مع الثقافة الشرقية/، وإيفيجينيا، وفلهلم ميستر الذي كتبه على فترتين /كما فاوست/، الأولى، «سنوات التعلّم» /١٧٩٥ ـ ١٧٩٦/ وقد اعتبر نموذجا للرّواية الجرمَانية: رواية تعليمية تقوم على تتبّع كائن فرد من فترة شبابه إلى مرحلة نضجه، منذ استفاقة وعيه إلى مرحلة انسجامه مع المجموعة، والثانية «سنوات السفر» /١٨٢١/ وهي مواصلة تأمّلية تحوّل السّرد إلى رواية محادثة وتحليل وتأليف لحكمة المؤلّف ومعرفته...

- ف -

فريديريك دي مونتيفلتر /١٤٢٢ ـ ١٤٨٢ Frédéric de Montéfèltre/.

هو دوق أربين /Duc d'urbin/ شيّد في منطقة الآبر /l'âpre/، في الآبنين /Apnnin غير بعيد عن الأنكون ـ Ancône/ أحد أجمل القصور في كامل إيطاليا، فيه نجد، لا ما نحتاجه للاستعمال اليوميّ (أوان من الفضّة، وأثاث فاخر جدّا، ومفارش من الحرير المذهّب...) فحسب، ولكن نجد أيضا عددا هائلا من التماثيل القديمة من خالص المرمر والبرنز، ومن الرّسوم الزّيتية المتميّزة، ومن الآلات الموسيقية المختلفة. فما كان يرغب إلاّ في الرّائع والنّادر، مرتئيا أنّها هي الأجمل بين حليّ قصره الرّائع... كلّف بيرو ديللا فرانشيسكا /Pièro della Francesca/ برسم جدارية في قصره تتضمّن ستّة وعشرين من مشاهير الناس في مختلف مجالات النّشاط الإنساني.

فلهلم ميستر /Wilhelm Meister/.

/انظر غوتة/.

فيتاغورس /٥٨٠ ـ ٥٠٠ق.م Phytagore/.

/نذكره بخصوص استدعاءات بونفوا للعدد/

يُعتبر شخصية أسطورية /كإنسان له مواهب خارقة أو كتعبير عن احتراز من حقيقة وجوده/، وهو عند أغلب المؤرّخين للفلسفة ـ ما قبل السّقراطية ـ واضع أسس العلوم وخاصة علم الرّياضيات والصّوتيات، ونسبت إليه اختراعات متعدّدة في مجال الفلك، إلى جانب ذلك يعتبر لاهوتيا وصاحب مذهب ديني واسع له أتباعه وممارساته وطرقه الخاصة. وهو الواضع لكلمة فيلسوف /إذ تسمّى بهذا الاسم معتبرا أنّ الانسان لا يمكن أن يكون حكيما، لأنّ الحكمة تُنسب إلى الإله وحده، والانسان لا يمكن أن يكون إلاّ فيلسوفا، أي: محبّا للحكمة/، كان يقول باعتماد الموسيقى لتطهير النفس من أدران الجسد، وهو أوّل من درس العلاقة بين الموسيقى والرّياضيات: العالم عنده أعداد وموسيقى.

فينوس /Venus/.

هي إحدى أشهر الربّات في الميثولوجيا اليونانية: هي التي ترعى ملذّات الحبّ... حول أصولها لا يتّفق الشّعراء، ولكنّهم على اختلافهم يلتقون حول كونها إلهية وبحرية وربّة الجمال والمتع، مشهورة بمغامراتها العاطفية لعلّ من أشهرها تلك التي كانت لها مع أدونيس /Adonis الشّاب الجميل شهيد الحبّ/: تربّى أدونيس عند الحوريات اللاتي كنّ يُرضعنه في المغارة، وعندما كبر قصد فينيقيا، ولمحته فينوس وتبعته حتى جبل لبنان، دون رضى الآلهة... يغار الإله مارس /Mars ـ إله الحرب/ من أدونيس ومن وله فينوس بأدونيس فيتحوّل إلى خنزير برّي هائج، وينطح أدونيس ويقتله، تحاول فينوس إنقاذه وتفشل... مثقلة بحزنها تحمل جسد المقتول حسدا بين ذراعيها وتبكيه وتحوّله إلى زهرة ربيعية لا تعيش طويلا /شقائق النّعمان/ ... وفي ميثولوجيا بلاد ما بين النّهرين فينوس هي عشتار.

كاسندرا /Cassandra/.

إذا عدنا إلى الميثولوجيا اليونانيّة وجدنا أنّها ابنة بريام ـ Priam، ملك طوراقيا أحبّها أوبللون ـ Apollon، فوهبها القدرة على التنبّؤ، ثمّ ندم عمّا وهبه، وحين لم يقدر أن ينزع موهبة التنبّؤ عنها شوّه تنبّؤاتها وجعلها تبدو مجنونة... وصارت بسبب تنبّؤاتها مقيتة بين النّاس. وبسبب تنبّؤاتها بالطّالع السيّئ لبريام ولأخيها باريس ـ Paris، ولكلّ المدينة رُمي بها في قلعة حيث ظلّت تنوح مصائب بلدها، وزاد نحيبها حينما علمت برحيل باريس إلى أثينا. لكنّ النّاس في طروادة سخروا من نذيرها. وقفت دون جدوى ضدّ دخول الحصان الخشبي إلى طروادة، ولكن دون جدوى... ليلة سقوط طروادة لمحها آغاممنون ـ Agamemnon، ملك اليونانيّين فأحبّها وعاد بها إلى أثينا، وتزوّجها وأنجبت منه طفلين... ماتت ممزّقة إربا مع طفليها من قِبل الزّوجة الأولى لآغاممنون.

كلود لوران /Claude Gelée dit le Lorrain ١٦٨٢ ـ ١٦٠٠/.

وُلد بمنطقة اللورين بفرنسا وتوفّي بروما. نشأ في عائلة معوزة وعرف اليتم وهو يافع، فما دخل المدرسة ولا توفّرت له ثقافة، قضّى صغره بين الغابات والحقول والهضاب؛ هناك، يقول، كان فضاء تعلّمه.

توفّرت له زيارة الفاتيكان، عندما دخلها مساعدا لتاجر دانتيلاّ... هناك كان انبهاره كبيرا بفنّ الرّسم، وخاصة بأعمال رافائيل /Raphail/ وميكل أنج / Michel - Ange/، وقرّر محاكاتهما، وشرع في ذلك، وبدأ يثير الاهتمام بأعماله.

في الثامنة عشرة من عمره قصد مدينة نابولي حيث مرسم والس / Godefroy Walss/ وهو رسّام طبيعة باتت له سلطة في هذا الضّرب من الفن /الذي أُعجب بالفتى فعلّمه قواعد الهندسة والرّسم المنظوري /La perspective/.

بعد عامين يعود لوران إلى روما، فإلى اللورين... ثمّ يعود به الحنين إلى روما ويستقرّ بها نهائيا... هناك تعرّف على ابن موطنه الرسّام بوسّان / Poussin/ الذي كان دخل روما مسبوقا بأمجاده، ونشأت بينهما صداقة

وتوطّدت، حتى صار اسماهما يذكران معا؛ و«كثيرة هي الرّسوم والمحفورات التي تصوّرهما معا في غابة روما: بوسّان في صرامة يتوجّه بالنّصائح إلى صديقه».

اعتُبر لوران، ولفترة طويلة، الأوّل بين رسّامي الطّبيعة، وهو إلى اليوم أشهر المبدعين لهذا النّوع من الرّسم، «...ما كان يقلّد الطّبيعة، فقد كان أمامها على شديد الانبهار، ولا كان يرسم انطلاقا منها، بل كان يتفحّصها، ويتعمّقها، ثمّ يعود إلى مرسمه ويرمي على اللوحة بإشراقات لونية ظلّت عينه مشبعة بها لفترة طويلة»... وفي قصيدة «ديدام منظورا إليها من لنغام»، يتوقّف بونفوا عند إحدى إبداعات لوران، التي جعلها عنوانا لقصيدته، ويقول انفعاله بصاحبها.

كيتس /١٧٩٥ ـ ١٨٢١ John Keats/.

شاعر (إنقليزي) فقد والده وهو في الخامسة عشرة من عمره، واستطاع رغم يتمه التّحصيل على تربية أهّلته لدراسة الطبّ، لكنّه تركها في سبيل الشّعر مغرما بالتيّار الرّومنسي. أشعاره الأولى «أنديميون /Endymion/» قوبلت بالكثير من النّقد السّلبي «الذين لم يدركوا نبوغه»... لكن ذلك لم يمنعه من مصادقة كبار الشّعراء في عصره /بيش ـ Bysshe، وشيللي ـ Shelly، وبيرون ـ Byron/ الذين شجعوه على المضيّ في طريقه... في عام ١٨٢٠ أصدر مجموعة شعرية ثانية «حكايات وقصائد» موشّحة باستحضارات من العصور القديمة والوسيطة... في هذا العام أصيب بمرض السلّ، سافر إلى إيطاليا حيث المناخ يساعده على استعادة عافيته، ولكن دون جدوى ومات بعد أشهر من وصوله... بعض قصائده نشرت بعد وفاته، وكذلك مراسلاته... تأثيره كبير على الجيل الذي تلاه: الرسّامون والشّعراء اعتمدوه نموذجا...

عام ٢٠٠٠ نشر بونفوا «كيتس وليوباردي ـ ترجمات جديدة /Keats et Léopard,. Quelques traductions nouvelles/.

ـ ل ـ

ليوناردو دافينشي /١٤٥٢ ـ ١٥١٩ Léonardo da vinci/.

رسّام (إيطالي) من أشهر الأسماء في تاريخ الإبداع /في الموسيقى، والنّحت، والعمارة.../ وهو أيضا مخترع وعالم رياضيات، وعالم طبيعة ومشرّح...

«وبرغم كونه يعتبر الرّسم أوّل الفنون فهو لا يعطي لوحاته الأهميّة التي يوليها للمستقبل، ومع ذلك فإليه يعود بدء التأسيس للرّؤيا الفنيّة التي تعتبر الإبداع استكشافا للعالم المرئي أكثر منه خلقا للأشكال...

- م -

مالارميه /١٨٤٢ ـ ١٨٩٨ Stéphane Mallarmé/.

شاعر (فرنسي) بدأ متأثّرا بالشّاعر بودلير (فرنسي ١٨٢١ ـ ١٨٦٧)، حاكاه في فهمه للفنّ والإلهام، فقد كان مثله يعبّر عن اشمئزازه من الواقع المتداول الفظّ وعن حاجته إلى المثالي. ثمّ بانت فرادته مع أثرين له: هيروديّاد / Hérodiade/ وظهيرة عُطم (أو طغمة) /L'après - midi d'un faune/، وصار له تأثير على الانشغال الإبداعي منذ ١٨٨٤ بفضل «لقاءات الثلاثاء» التي كانت تُنجز في شقّته مع المبدعين في مختلف مجالات الفنون... كان على دوام محاولة تحقيق الطّموح السّامي للرّمزية التي كانت تقوم على الإشارة، باعتماد الكلمات، إلى جوهر الأشياء...».

مرسياس /Marsyas/.

لعلّ بونفوا يقصد هنا مارسياس الذي تتضمّنه الميثولوجيا اليونانيّة: هو ساتيري /Satyre/ أصيل سيلينا /Célènes/ بإفريجيا /Phrygie/ ابن الإله هيانيس /Hyagnis/ الذي هو مبدع الانسجام. تعلّم مارسياس الموسيقى على يدِ والده ثمّ في المدرسة وذهب في ذلك شوطا كبيرا وهو بعدُ يانعا... وهو الذي أبدع آلة الناي حيث أتقن به تجميع كلّ الأصوات التي كانت من قبلُ توجد موزّعة بين مختلف قصبات السنابل، ثمّ صار يشارك والده مجد وضع الموسيقى للأناشيد المقرّظة للآلهة.

معتدّا باكتشافه آلة الناي وبإتقانه فنّ الموسيقى تحدّى الإله أبوللون / Apollon إله الشّعر والموسيقى، الذي تنتصر إليه الثقافة الغربية أكثر من انتصارها لديونيزوس/ أن يضاهيه في إبداع اللحن وعزفه، وقبل أبوللون التحدّي، وفاز في النّزال ولكن بعد الكثير من الجهد، والعقاب الذي سلّطه أبوللون على مارسياس يدلّ على الحال الذي كان عليه خلال النّزال: ربطه إلى شجرة وسلخه حيّا... لكن النّدم أصابه حالما هدأت فورة غضبه فقطع خيطان قيثارته /أو قيثاره/ ووضعها مع ناي مارسياس في معبد /Antre/ معبد الإله باخوس /Bacchus/ نذرا.

- ن -

نهر ستيكس /Le styx/.

في الميثولوجيا اليونانية أنّ أنهر الجحيم الرّئيسية أربعة: الآرخرون /L'archéron/، والكوسيت /Le cocyte/، والفليجيتون /Le phlégéton/ والستيكس /Le styx/، كانت استيكس حورية /أو جنيّة/ ابنة أوسيون /anىoc/ إله المياه، وتيتيس /Téthys/ ابنة الأرض والسّماء، وهذه هي الأكبر مكانة بين أخواتها: فعندما طلب الإله جوبيتر /Jupiter/ النّجدة من كلّ الخالدين، لعقاب التّيتان /Les titans/ بسبب غطرستهم /محاربة الآلهة/ كانت إستيكس أوّل المستجيبين لندائه، لذلك ظلّ جوبيتر مدينا لها بتلك الحركة: قبل بأبنائها في مجلسه، وجعلها الرّباط المقدّس لوعود الآلهة، وصار إذا أقسم باسمها فقراره لا يردّ. كانت إستيكس تشرف على نبع في أركاديا /Arcadie/ حيث المياه الهادئة جدول يغيب في عمق الأرض، ثمّ ينساب في المناطق الجحيمية، هناك يصبح هذا الجدول نهرا متوحّلا يفيض في مستنقعات عفنة مغطّاة بليل مُعتم.

- هـ -

هاجر

زوجة النبيّ إبراهيم عليه السّلام.

هُولان /Alexandre Hollan - ١٩٣٣ ..../.

رسّام (مجري) يعيش في باريس منذ عام ١٩٥٦... منذ تلك الفترة تعوّد على الانزواء لفترة من كلّ عام في جنوب فرنسا، «في اتّصال مباشر مع الطّبيعة»... رسومه تقول الأرض في مختلف صنوف تجلّيها... وجد فيها بونفوا ما يقول انشغاله بأشياء الأرض في حضورها وغيابها وامتلائها... تعبّر عن ذلك النّصوص التي تناول فيها أعماله «صباح الكسندر هلان» و«الشجرة أبعد من الصّور» و«الفم فاغر».

الإحالات

ـ القلب ـ الفضاء /Le cœur - espace/: ظهرت هذه القصيدة في صياغتها الأولى عام ١٩٤٥، ثمّ في ثانية /مختزلة/ عام ١٩٦١، وهي التي اعتمدتها في التّرجمة والصّياغتان /متبوعتان بحوار أجرته مع بونفوا Maria Silva da Ré/ ضمّهما كتاب واحد صدر عام ٢٠٠١ /انظر المراجع/.

ـ باستثناء المقطع ـ الافتتاح، المأخوذ من قصيدة /ذهبٌ بلا سيماء/، فإنّ كلّ القصائد المنتخبة لهذا العمل ترجمت كاملة؛ والنّقاط التي تتوسّط بعضها من وضع بونفوا.

ـ في تناول الأعلام والأماكن والأعمال التي استحضرها بونفوا في القصائد المنتخبة لهذه الأنطولوجيا /والتي لم يذيّلها بالهوامش/، توخّيت الاختزال والإبقاء على معلومة دون غيرها، فالأمر لا يعني هنا، إضفاء معرفة بل يعني المغامرة بفهم قد لا يكون «معرفيا» هو الأضمن.

مراجع القصائد المترجمة

Le cœur - espace, 1945 - 1961
ed. farrage - léo scheer - Tours 2001

Traite du pianiste.
Revue. La révolution la nuit, Paris 1946.

Poèmes.
/Du mouvement et de l'immobilité de Douve - Hier régnant désert - Pierre écrite - Dans le leurre du seuil./
ed. poésie /Gallimard, Paris 2002.

L'Arrière - pays.
ed. poésie /Gallimard, Paris 2003.

Ce qui fut sans lumière
/suivi de début et fin de la neige, et de, là, où retombe la flèche./
ed. poésie /Gallimard, Paris 2002.

La vie errante.
/suivi de, une autre époque de l'écriture, et de, Remarques sur le dessin./
ed. poésie /Gallimard, Paris 2002.

Les planches courbes.
ed. poésie /Gallimard, Paris 2003.

أهمّ المراجع العامّة

Histoire de la littérature française.
Castex.P.G, Surer.P, Becker.G ed. Hachette, Paris - 1993.

Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine.
Grimal.P. ed. P.U.F, Paris - 1991.

Mythologie grecque et romaine.
Commerlin.P. ed. Garnier, Paris - 1960.

Dictionnaire international des arts
Cabanne.P. ed. Bordas, Paris - 1979.

Dictionnaire philosophique.
ed. du Progrès, Moscou - 1980.

Entretien sur la poésie.
Bonnefoy.Y ed. Mercure de France, Paris - 1990.

Europe /revue/.
No 890 - 891, Juin - Juillet, Paris 2003.

Magazine littéraire /revue/.
No 421, Juin, Paris 2003.

- فلاسفة الإغريق.
تأليف ريكس وورنر.
ترجمة عبد الحميد سليم.
القاهرة ١٩٨٥.

شكر وتقدير

يوفّر هذا العمل ما به يكون الصّورة الجميلة عن الصّداقة في أبهى حضورها: حركية من تقاطع جهود لا شيء يفسّرها كما الوعي الجميل بأولويّة الإبداع / التحمّس للمشروع، واستحضار مدوّنته ومجادلة مكوّناته، ومتابعة إنجازه، والتّنبيه إلى هنّاته، وتوفير الوقت لإنجازه... إلى أصحابي هؤلاء كلّ الودّ: إحسان بن صالح، آدم فتحي، خالد المعالي، أحمد حيزم، كمال محلّة، عبد السّلام جعفورة، سمير تريمش، حكيم بن حمّودة، بشر الصّكلي، فتحي بالحاج عمر، فتحيّة بن حسن، نعيمة عمامو، أيهم بن صالح، هالة التريكي بن صالح... إليهم ينتسب العمل قبل انتسابه إلي.

الفهرس

هذا الكتاب

كان ينظرُ في ثباتٍ باتّجاه الشّمس التي كانت تغيب خلف السّحائب الحمراء. فكيف أمكننا الحديث إليه هو الذي ما كان غيرَ هذا النّصب الهائلِ، الذي كان بعضنا يَحملهُ، في تعب يتزايدُ، على الأكتاف؟ هو الذي كانت حركتُهُ المنتشيةُ نحو السّماء تُطاوع حركاتِ أكتافنا غائصةً ومنتصبةً كما جؤجؤ مركبٍ؟ هو الذي كانت سِحنة المغنّي الضّريرِ، سحنتُهُ، تمّحي فوق الحجارة كما امّحت هناك نارُ السّحائبِ الحمراء؟

Liberté • Égalité • Fraternité
RÉPUBLIQUE FRANÇAISE
AMBASSADE DE FRANCE
EN RÉPUBLIQUE ARABE
D'ÉGYPTE

CFCC